



ما عدت أنتظر الشتاء

فلا أنت تأتين، ولا المطر



عمر سعيد

ما عدت أنتظر الشتاء

فلا أنت تأتين، ولا المطر

روايـــة

دار الفارابي

الكتاب: ما عدت أنتظر الشتاء

المؤلف: عمر سعيد

الغلاف: ؟؟؟؟

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: شباط ٢٠١٦

ISBN:978-614-432-516-2

حين كان في بابل التقى عن طريق الوهم ملامح ظنها حقيقة، إنه الآن يحاول تسلق جثته ليبلغ اعتباره من جديد، ليس من السهل أن نفترش أوهامنا ونحاول أن نغفو في عالم افتراضي، زينته لفترة من العمر حالة من الوجد التي أثارها فيه عطر التراب المنبعث من قبور الأطهار، فتخيل أن لجسده مثل هذه الرائحة التي لا يمكنه أن يقول عنها إنها زكية، بل مختلفة في فعلها عن رائحة الخوف، وليست كرائحة الحياة التي يشتهي.

نزل من وقوفه ليشرب من الوعاء المعدني الذي شرب منه إمام الكوفة، وصاحب الحمرة في ذؤابات السكاكين والخناجر إلى يومنا هذا. لم يشرب لكنه عرف طعم الهزيمة، والفشل في لون أعين الشاربين المحيطين بالبئر.

عاد إلى تلك العيون فوق أعمدة بابل التي كانت جزءاً من تاريخ ومتحف، وأخبرها أن العيون التي سافر إليها كل مساء خذلته وجعلته منكسر القلب.

كأنه يتجاوز طريقاً سريعاً ذا خطين، يزدحم بالعربات التي كان

يقفز متراجعاً أمام إحداها، ويهم ليعبر أمام أخرى، أو يتلوى يميناً وشمالاً مع سماعه أصوات المكابح أو البوق وقد أصابه الهلع، هكذا كانت حاله النفسية عندما ألقى برأسه فوق ذراعيه أمام جهاز الكومبيوتر الذي يتوسط طاولة خشبية في مقهى Title في شارع التخصصي بالرياض، وقد انتابته مشاعر متداخلة متنافرة، بعضها يدفعه للبكاء وبعضها للصراخ وغيرها للسخرية وأخرى للجنون، كل هذا لأنه أدرك أن الإنسان فيه أعجز عن احتمال ما تراكمه الأحداث اليومية التي صار يفر منها إلى النوم أو محاولته.

منذ مدة تجاوزت السنوات وهو يحاول كلما أغمض عينيه أن يحدد مصدر التشوش الذي يعيشه، بعد أن حاول إدمان ممارسات متشعبة ومتعددة ليخرج من تشوشه ولكنه حتى الآن لم يفلح، جرب الموسيقى، جرب الكتابة، والجنس والشراب، فالسفر والتنقل دون أن يهدأ له بال، حتى بات يجلس ساعات طويلة أمام جهاز الكومبيوتر يقلب صفحات لا تحصى في مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها على شبكة النت .

استوقفته صورة ظل ينظر إليها طويلاً، محاولاً أن يتذكر المكان الذي التقى فيه هذا الوجه وتينك العينين! فتح الصفحة الخاصة بصاحبة الصورة، وراح يقرأ المعطيات التي وفرها هذا البروفيل: نينا، فاس الجديدة، المغرب. لم تكن توجد سوى تلك الصورة، التفت إلى عدد الأصدقاء فوجده قد تجاوز الألف! نسخ اليوزرنيم، وثبته في صفحة

ملاحظاته على سطح المكتب في جهازه، وعاد يقلب الصفحات دون أية دراية بما يريد.

تجاوزت الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، نهض بتثاقل، وتأبط الكومبيوتر، وغادر المقهى باتجاه مسكنه.

١

قلص عنقه بين كتفيه بعد أن أحس بلسعة البرد القارس فقد كانت ليلة السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر. كان يعبر طبقات الظلام في تلك الليلة وحيداً، وقد تزاحمت الفراغات في روحه وجمجمته فكأنه ألقت به مركبة فضائية فوق كوكب آخر وهو يدور بعكس ما ينبغي، راحت الصور تتقلب في مخيلته ببطء شديد، ما جعله ينحني مستنداً إلى أحد أعمدة الجسر الذي كان يعبر من تحته، وقد غالبته رغبة في التقيؤ...

بعد أن فتح عينيه تداخلت فيها الألوان بين أزرق وأحمر وأسود ما جعله يلتفت خلفه ليرى كثافة الظلام تعزله عن الكون الذي قدم منه، وكاد يوقن أنه خارج كوكب الأرض لولا أن نبهه زعيق سيارة الشرطة، وقد فتح سائقها النافذة وسأله هل أنت بحاجة إلى المساعدة؟ فهز رأسه نافياً، ورفع يده مؤكداً عدم حاجته، وأغمض عينيه وأصدر صوت تجشؤ وقد أفرغ ما في معدته دفعة واحدة!

لسعة البرد، ورائحة السوائل التي تقيأها، وألوان المصابيح فوق

سيارة الشرطة، كلها جعلته، لوهلة، يشعر أنه يعبر جسده باتجاه عالم افتراضي جديد في كل مكوناته وتفاصيله.

كانت يده تتحسس جيوبه بحثاً عن منديل يمسح فمه به، ولمّا لم يجد لجأ إلى كمّه، ثم استقام من انحنائه، وعبر الشارع مخلفاً وراءه سيارة الشرطة التي ظلت تراقبه إلى أن تجاوز مدخل العمارة التي يسكنها.

دخل غرفته التي يتوسطها فراش فوق الأرض حيث اعتاد النوم بهذه الطريقة منذ سنوات وعلى الجدران علق ملابس مختلفة، وتناثرت أوراق هنا وهناك، وتكدست كتب في أكثر من مكان فوق أرض الغرفة، وفي واحدة من زواياها استقر عوده الذي يسافر معه حيثما رحل، وجهاز التلفاز الذي لا يفتحه خلال العام أكثر من مرتين أو ثلاث فوق طاولة صغيرة تزاحمت عليها عدة أشياء.

تمدد في فراشه، محاولاً أن يتململ تحت وطأة عالم افتراضي يرخي بظلاله على حياته التي فقد كل إمكانية للتحكم فيها، أو السيطرة والضبط، كما لو أن الانفلات الذي كان ينشده قد تحول إلى تسمر يخرجه نوراً من عينيه اللتين راحتا تطلقان حزم البصر منهما فوق نافذة هذا العالم الافتراضي؛ فشخصيات هنا، ومساحات هناك وفضاءات لا متناهية يصعب ملؤها أو تحسسها، سماوات وأراض، وتكتلات وتجمعات وتيارات جميعها جعلته يشعر بالرغبة والتحفز للخروج والانسحاب من عالم الروائح والملموسات والحجوم والمحسوس

إلى عالم يتسع باتساع أحلامه النهمة الجشعة، فيغدو قادراً على ملامسة المناطق الزمنية لكوكب الأرض كلها، من شرق خط غرينتش إلى غربه. وتصطاد عيناه مليارات من الخطوط اللونية والكتل الافتراضية التي تجعله متصلاً بما قبل الإنسان وما بعده. فيتحول إلى حزمة عصبية تعيش على رغبة الذوبان في كل أجناس البشر وسلالاتهم.

٢

اكتشافات الإنسان لذاته، أو لغيره ليست بالأمر الذي يسهل رصده أو الحديث عنه بكلمات، فعمق التجربة البشرية شخصية كانت أو عامة أوسع من أن يتمكن المرء من انتقاء عبارات، يفصح بها عما يسكنه من مناخات خوف، يعرف كيف بدأت، ولكنه يجهل كيف يمكن أن تتوقف أو تنتهي!

فالحرية التي يتحرك بها المرء في عالمه الصامت تجعله يرتبك حين يستفيق على ما يحيط به من حواجز تحوِّل ما حوله إلى مساحات يمكن قياسها بأمتار واعتبارات ومفاهيم.

حرَّك المؤشر، وقد حرَّك معه آلاف التجاذبات والترددات في عالمه الجواني؛ التي بمفادها؛ تساءل هل يستمر في البحث لدقائق قليلة، أم عليه أن يتوقف، ويخلد إلى نوم لن يهدأ فيه سوى جسده عن الحركة، بينما سيظل لاوعيه يعمل على أكثر من محور واهتمام .

ودون تردد ضغط على مؤشر الإطفاء، وتمدد في فراشه محاولاً

الاستسلام للنوم.. وقد بقي بؤبؤا عينيه يجولان في مسافات أوسع من قبعة الجفن التي تطبق عليه؛ يستجمع صوراً لما مر به طوال الساعات التي بقيها على قيد وعيه منذ أفاق على نور هذا الكون.

وأخذ يمارس حالات ألفها مع نفسه منذ زمن، كأن يترك الخدر يتسلل إلى كل جزء من جسده بهدوء بدءاً بأصابع قدميه، فصعوداً؛ إلى أن يطبق الخدر على دماغه فيخلد في نوم يحبه لأنه لا يفصله عن افتراضات تريحه بأوهامها من عالم تتأجج فيه يوماً بعد يوم صراعات خشنة حد الانكسار.

٣

عندما تتهدم فينا أماكن كانت مدهشة بتماسكها، ندرك معها حجم الألم الذي يحمله الإنسان منذ آلاف السنين، بعد أن أفاق على فاجعة اللاجدوى من الاستمرار.. ولكن لِمَ نحن نُصِرُّ على التَّحوُّلِ من ضفة إلى أخرى كلما حلَّت بنا هزيمة، ننهض ونبدأ ترميماً نعلم أنه لن يصمدَ كثيراً، ورغم ذلك نُصِرُّ على مواصلة البناء والتَّحوُّل من مناخ قاتم إلى آمال وعراقة في التعاطي مع أسرارنا التي تشكل حيِّزاً صريحاً في تكويننا؟!

العالم الذي بدأ يحتل كل تفصيل وجُزَيءٍ من حياتنا لم يعد بالعالم البسيط أو السطحي الذي يمكننا أن نحصل منه على خبرات لا تؤثر فينا وليس بإمكاننا أن نقف أمامه صامدين أو أن نتعاطى معه بتجاهل يمكننا

من السيطرة على ما نحن عليه، بل غدا عالماً مركباً، يتكون من تعقيدات وتداخلات؛ تجعل منا جزءاً من كل هذا التكوين، وليس مجرد جزء بل جزءاً يفعل فعله في تبني رؤى ونظريات وأحلام ومشاركات تغدو ساعة بساعة ويوماً بيوم هي ما نحن عليه، وكل اضطراب فينا أو من حولنا هو نتاج ما نحن نسعى إليه من محاولات ركيكة لسد الفجوة التي تتسع باستمرار وبشكل مخيف، فنترجم ضغوطاتنا الداخلية إلى ضغوطات تغادر عقولنا عبر أطراف أصابعنا التي تشعرنا بأننا متصلون بأنفسنا وبأبناء جلدتنا كلما قمنا بضغطة منها على لوحة المفاتيح.

كيف لعقل فردي أن يحتمل هذا القدر الهائل من القراءات والتعليقات والملاحظات والصور والنقاشات والتحليلات والتخمينات والنكات التي تصدر بشكل مكثف عن أرقام ضخمة إلى حد الذهول عبر مثاقب ضوئية ساذجة الشكل والتراكيب لكنها مذهلة الفعل والتفاعل؟ نلتهمها بلا أية مقاومة أو موقف، ونبني عليها أو نهدمها بشكل غير مبرر أو موضح، وكل ما في الأمر أننا نفعل هذا لأننا نملك خيارين فقط ليس أكثر، أوافق أو لا أوافق.

لقد تحولت الفراغات أمام عيوننا إلى مستطيلات نملؤها بردود أفعال حيال ما تقع عليه أبصارنا، ومن أشخاص نعرف أنهم من محيطنا ولكن لا ندرك عنهم أكثر من كما لو كنا نسير فوق مسطحات جليدية لا نعرف متى تتفتت تحت خطواتنا أو تذوب لنستفيق على ما يشبه البلل بماء الذكريات المتعبة. والسؤال الممل: لِمَ علينا أن نواصل السير؟

لِمَ علينا أن نستمر في هذا الحذر والمخاطرة؟ لم نحن موثقون إلى عالم المحاولة والنهوض، وقد أدركنا كبشر من سنوات سحيقة أن لا جدوى؟

أتعرفون لِمَ نفعل هذا؟ لأننا لسنا من صنع أنفسنا، ومن يصنع نفسه لا شك أنه يملك القدرة على هدمها وبنائها مرات ومرات حتى يدرك من كل تلك المحاولات أنه واهم في صنع ذاته، بل هو يقوم في كل محاولة بناء بهدم ذاته وإنما يعيد تكوينها ليستعيد متعة هدمها من جديد! لذا هي لذة الألم التي يدمنها العقل ولكنه يكسوها بمصطلح الأمل والحلم والطموح، وهي في الواقع ليست أكثر من إدمان ألم الفقدان والبحث عن مفقود سيحمل معه لسعة ألم منشودة! فالحب والموت والخوف والمخاطر والسكون والرفض والبدء والتوقف والحذر كلها مجرد مساحات لطرح محاولاتنا خلالها في مزادات ليست علنية إلا في لحظة النتائج التي لا ينفع بعدها لو...

٤

أفاق من عمق ثباته على دموع تتدحرج على صدغيه، وقد انتابه نحيب رصين لا يمكنه أن يجهر بمصدره لغير نفسه وفي غير وقت النوم العميق، لأنه يخشى أن تطلع ذاته على هشاشة تماسكه، وعمق أحزانه ومخاوفه وتيهه! فتأمل في عمق الظلام المنتشر في فراغ الغرفة فلم يلمح فيه إلا فراغ صدره المحموم بالشوق والحاجة إلى كثير من

الأشياء التي يمكن لأي إنسان أن يحصل عليها، لكنها تظل بالنسبة إليه مجرد أحلام وأمان صعبة المنال، كلمسة حنان، ونظرة حب، وابتسامة عطف ومودة.. مر بإبهامه على مجرى الدمع الذي أحس بحرقته ومسح ما أحسه ولم يره، ثم قبض على أصابعه، وحشر قبضة يده في فمه محاولاً خنق البكاء الذي يكاد ينهار تحت إلحاحه، فيما راح صدره يتهدج ويهتز، ويجترح من حرقة الشوق ما لا يمكن أن تفعله يد أم تهز سرير طفلها الذي فقدته وما فقدت حبه.

هدأت خواطره قليلاً، وأحس بعدها بسكينة مبهمة المحتوى، وعاد يتنفس بهدوء، ثم استسلم للنوم من جديد، وقد فرغت مخيلته من أية جواذب أو مثيرات..

٥

لصباحات المدينة أيام العطل في نهايات الأسبوع بلادة لا يمكن وصفها بقدر ما يمكن أن يحياها المرء بشكل سلس يجعله يألفها بمرور الوقت..

استيقظ من نومه في ساعة متأخرة قبل الظهر، وهو يشعر وكأن جسده قد تعرض للضرب بقسوة وشدة، ما جعله يرضخ للعجز الذي حرمه النهوض من فراشه ليشرب قليلاً من الماء، وقد أحس بعطش شديد جراء ما حدث معه ليل أمس؛ فجفاف لسانه وتيبسه، ومرارة المذاق في فمه لا يمكن أن تزول ما بقيت مرارة الحب في قلبه.

ظل في تمدده يحاول استعادة ما جرى معه منذ سنوات خلت تارة، وطوراً يطبق جفنيه مستسلماً للنوم، وبين ضفتي اليقظة والنعاس كانت عشرات الملامح تختال بين زهو وكآبة حتى سمع رنين الهاتف يأتيه ليستنفر كل أعصابه التي كانت متراخية وكسلى حد الخدر، بحث عنه ملاحقاً مصدر رنينه بكفه دون أن يلتفت بنظره، ولكنه لم يهتد إلى مكانه قبل أن ينقطع الرنين الذي بعث اليأس في نفس المتصل فكف عن المحاولة، فسكنت كفه وتوقفت عن الحركة، وعاد إلى هدأة الكسل التي ما زالت تجتذب جسده ودماغه إليها.

وعاد يطارد عصفورة الأحلام التي كانت تقفز من حلم إلى آخر دون أن تهدأ، وهو يلاحقها بلا أية محاولة منه للتركيز على أمنية أو حلم ما. وقد امتلأت رئتاه بآثار الهزائم التي أتقن تربيتها منذ طفولته..

الحب هو الانكسار الأجمل في مقلتيه، يحمله على جناحيه مرة ويطوح به أخرى ولكنه لا يستطيع أن يتنحى عنه جانباً مهما جافته دروبه وفضاءاته!

نهض من فراشه بعد التردد الذي عصف به برهة من الوقت، وخطا باتجاه الحمام، وهناك أسلم ناظريه للمرآة التي مكنته من قراءة ملامحه بحضورها ورمزيتها.

كان يحاذر ويتجنب أن يحدث وجهه بسلبية عرف كيف تطبق كآبتها على يومه وتحوله إلى انتكاسات متتابعة، ترميه في مستنقع من الإحباطات التي لا يملك تجاهها إلا الترقب والانتظار حتى تزول حاله هذه.

أطال التحديق إلى ناظريه، وجال بتأملاته على تثني التجاعيد في وجهه، وفي عمق لاوعيه تساؤل وحيد ألا وهو متى سيحصل على ذلك الحب الذي ينتظره منذ أن عرف قلبه العلاقة بين الجسد والروح.

المرء لا يمكنه السفر عبر قحل أبدي، بل إن باستطاعته أن يتجاوز أراضي من القحل، إنما ليس جغرافيا الحياة برمتها إن لم يتوضأ بنور الحب من صلاة إلى أخرى.

انحنى يغسل وجهه، فأحس بلسعة الماء البارد على وجنتيه، وظل يكرر صفع وجهه بالمياه التي كانت تسيل من بين أصابعه كما يسيل الشباب من مسامات جسده سلساً غير محذر أو مسبوق بتنبيهات محددة..

٦

استقام من انحنائه أمام المغسلة والتفت إلى انعكاس وجهه في المرآة، وابتسم، ثم دخل غرفته وجلس أمام الطاولة التي يضع عليها الكومبيوتر، وتوقف برهة غير مبال بما يريد أن يفعل، ثم تناول منديلاً من علبة المناديل السوداء التي كانت عن يمينه، وراح يمسح الغبار الذي تكدس ليلاً على الجهاز، ثم فتح غلاف الجهاز الذي يشبه غلاف كتاب، وضغط على مفاتح التشغيل فراحت الإشعاعات تمزق سواد الشاشة الزجاجية، وتمتد من زاوية إلى أخرى خطوطاً ثم تتجمع لتعطي أشكالاً تفصح عن صنف مختلف من العقول والمشاعر التي

كانت تقبع خلف تلك المساحة قبل أن يمزق النور سوادها ، وتلا ذلك أصوات نغمات جعلت مخيلته تلتقط ما لم يبلغه من خلال البحث عنه في نافذة الشاشة الزجاجية.

كتب الرابط الذي سيبلغ من خلاله بعض صفحات التواصل الاجتماعي، ثم انتقل إلى صفحة موقع تاجد الذي لمح فيه ليلة الأمس بروفيل الفتاة التي ترك لها على بروفيلها طلب صداقة. وما أن اكتمل وضوح محتوى الصفحة حتى لمح الأيقونة الحمراء تشير إلى وجود ملاحظات، فسارع إلى فتحها فإذ به يجد قبول طلب الصداقة منها .. سارع إلى الضغط على خانة الأصدقاء ليلحظ فيها تلك الصورة التي ظل يتأملها فترة طويلة قبل أن يفتح البروفيل بشكل كامل، وفي رأسه تدور تساؤلات عديدة، وتعج بروحه عشرات الأماني!

فتح صفحتها وراح يتفحص ما تحتويه من (تعليقات، إعجاب، زهور، تهنئة بعيد ميلاد، لوحات لرسامين عالميين، صور لفتيات عاريات...) كلها نشرت على صفحتها من أصدقاء تجاوز عددهم الألف.

أحس لوهلة أنه بحاجة لأن يغادر هذه الصفحة ويقوم بإلغاء الصداقة معها، لكن النظرة التي كانت تطل من عينيها في تلك الصورة التي تنزوي في أعلى يسار الصفحة جعلته يطيل النظر حتى عاد به الزمن إلى بابل، هناك عندما وقف طويلاً ولوقت سمح لبعض الأصحاب بطرح تساؤلات عن سر وقوفه الطويل أمام تلك الصورة،

إنهما العينان نفساهما اللتان جعلتاه يعتقد أنه عرفهما أيام كانت لنساء بابل عيون تملك سحراً يجعل حتى الذين تراهم في حيوات أخرى أو بعد قرون يعيشون كما لو أنهم سُلبوا الإرادة، وقلوبهم مملوءة بروائح عطور لا يمكن العثور عليها في حياة كحياتنا هذه، ولا يمكن وصفها، ليس لندرتها فقط بل لأننا لا يمكن أن نشتمها إلاعبر غبار التاريخ الذي يتعالى جرَّاء وقع خطوات المتجولين في أرجاء المدينة التاريخية، ولكن لم يعرفوا حقيقتها بتاتاً!

أفاق من شروده وحرك المؤشر باتجاه خانة الرسائل، وراح يكتب، ثم يمحو ما يكتبه، ثم يعاود الكتابة، ويمحو مجدداً، حتى استقر على آخر عبارة قرر إرسالها «أنا بحاجة إليك!» وضغط على خانة إرسال، وسجل خروجه من الموقع، وراح يغلق الجهاز، ويفصل عنه التيار الكهربائي، ثم نهض واستبدل ملابس البيت بأخرى ملائمة للخروج، وفي مخيلته تلك النظرة وتانك العينان وتساؤلات لا تحصى عن الشبه الكبير بين العيون البابلية وعيني صاحبة البروفيل في ذلك الموقع الذي لم يعرفه إلا قبل أيام قليلة!

٧

إن روعة من روعات الحياة تكمن في توهم الغد بأعظم مما سيكون عليه، والجميل في حاضرنا أن تكون ذكرياتنا في الغد بحجم ما توقعنا من دهشة!

شارداً بين خلل الألوان التي تغطي مساحة النظر فوق رمال الصحراء الممتدة أمام ناظريه، يفتش في خبايا تفكيره عن إنسان جديد قد يأتي من زمن خالٍ من الانكسارات، وهو يحاول تارة الجلوس إلى أمه البعيدة خلف عينيه والقلب، وطوراً يجالس أباه الذي يخشى أن يرى ما في عينيه، لأنه أب لأسرة من أسر الحرب الأهلية، أثقلت الحرب كاهله، فطلب من أبنائه أن ينتشروا في العالم بحثاً عن وطن بديل! وكان هو أغبى أولئك الباحثين لأنه كان يسير حاملاً في يده صورة تحوي ملامح لا يمكنه أن يجدها في شوارع الغربة الباهتة، ولكم حدث نفسه «أنه من حسن حظه أن لا يتخذ له صديقاً إلا نفسه، بعد أن امتلأت قلوب البشر بالتيه والخوف والفراغ». ثم يعود ليقول لذاته: «لا أرغب في سماع صوتك رغم إلحاحك الشديد» ثم يعود ليسمعها مثبتاً لنفسه أنه كاذب، فلو لم يرد سماعها لما استمرت رحلة لحاقه بها طوال هذه السنين، ولما كانت هي صديقته الوحيدة بحثاً عن شيء اسمه الحب، ولكم حاول التغابي كلما راحت تحدثه عن ماهية الحب وأين يمكنه أن يجده، وكيف ومتى، ولكنه يعود ليجد أنه مجبر على الإصغاء وترك دفة القيادة لها.. ويستمر توريق الزمن في يومياته التي تكيد له دون أن ينال منها يأس أو تعب، حتى تحوله إلى حيوان مليء بالحب الأسود!

وينطلق في مطاردة لا تنتهي بحثاً عن رمزية الحيوانات في شخصيات البشر الذين ألفهم فترة من الزمن، فذاك ذئب نهش بخوفه كل جمال فيه، وراح يلتفت يمنة ويسرة حذراً من الذئاب التي يَسمَعُ

عواءَها في من حوله، وذاك ثعلب قصر عنقه ليحاول دفن رأسه بين كتفيه وقد أطلق العنان لأنفه وأذنيه وعينيه في المراقبة والحذر، وهو يهتز تحت جلده خشية ألّا تنجح رغباته في تحقيق مأمولها، وآخر كلبه حوله إلى هزاز ذيل، فراح يمسح عنقه بساق الأقرب منه، وهناك الذي راح يطارد قرده فوق أغصان المحاولات، عله يكون ودون جدوى لنقص في أصالة ماهيته، وبالقرب منه من تبع قطه الذي يدفن رأسه في أكياس القمامة، وتلك أفعى تنسل تحت جلد ذلك الذي يقف صامتاً لا ينبس بكلمة، حتى تحول البشر كلهم من حوله إلى حيوانات لا تعد ولا تحصى، ما اضطره للبحث عمّا هو عليه الآن، وراح يرى نفسه في كل لحظة حيواناً يختلف عمّا كانه قبل لحظات، حتى اكتشف أن الحيوانات كافة تربض تحت جلده، وتستفيق وفقاً لحالة الرغبة التي يعيشها، فتعالى صوته يردد جسدي دائماً على حق، وعقلي على باطل!

ثم مسح عينيه بأصابع كفيه مزيلاً عنهما ما اختلط من أشعة الألوان والغبار والحر المنبعث من المكان، وعن عقله أزال بحركته ما استسلم له برهة من الوقت في تأملات وتخيلات وتحليلات، لو تركها تسير على هواها لما عرف كيف يوقفها، ولا كم ستستهلك من الوقت والفراغ. ثم استقام من مكانه، والتفت في دورة كاملة حول ذاته، وفي مخيلته بريق تينك العينين البابليتين اللتين تحتلانه بسحرهما، ولا يعرف كيف يمكنه أن يوقف هذا التأثير، الذي صار يدرك ثقله على روحه وقلبه وعقله، لحظة بلحظة..

٨

للقائلين كل شيء انتهى، لم ينته ولن ينتهي! ففي كل يوم نرتكب عشرات الأخطاء وتلبس معاناتنا أردية مختلفة! والذاكرة حقل خصيب، يمكنها أن تنبت الحقد إلى جانب الحنين والألم إلى جانب الطمأنينة، وتجعل من ملامحنا مرايا تنبئ الرائين بكل ألوان رقصاتنا الحزينة والفرحة! والجلد سجان كل أمل وألم، فتَحتَه يتفتح الحزن الصاخب، وتحته تزهر حمحمة الرغاب، ويتراقص الجسد شهوة، وتنشأ مدن وشوارع، وتدور حروب وصراعات!

كان يسير وفي جوفه تتنامى آمال الغد التي يعبر إليها بشوقه وحنينه، مردداً غداً آت سواء كنت أو لم أكن، ولن تختلف مراحل السفر مهما اختلفت وسائد النائمين بين حجر أو قماش أو شوك أو تراب. ومهما ارتدى المرء خوفه من الآتي لن يمنعه منه خوف أو حذر، والسير مستمر سواء كانت خطانا قلقة أو واثقة!

كان يسير في شوارع المدينة المتفسخة من الحر والأتربة، يعري البيوت التي يمر بها من أسوارها المتطاولة، ويسمح لمخيلته أن ترسم دواخلها وفقاً لهواه، كل هذا كان بمثابة لعبة يمتطيها ليقطع مسافة الزمن بين مغادرته مطار بلاده حتى إيابه.

السكون المثقل بنظرات المتعبين من جنسيات مختلفة جعله يصل الحنين بالحنين، استقلّ إلى البطحا - وهي وسط الرياض القديمة - باصاً تماهت ألوانه بصدأ حديده، وفعل الزمن ببابه لدرجة

أنه بان كما لو كان معلقاً في الهواء، المقاعد المتهرئة والمنتفة أغلفتها الجلدية الخمرية اللون تلتصق بملابس الراكبين الصامتين إلى حد جعله يتخيل أنه في متحف شمعي متنقل، فلا راكب يحرك ساكناً، وراح يتعمد الابتسامات عله يحصل على رد، ولكن دون جدوى!

تسلل بين سيقانهم المتداخلة في ممرات الحافلة حتى بلغ مقعداً إلى جانب السائق، ألقى هناك بجسده، وراح يجول بنظراته على وجوه الراكبين التي تحمل إلى جانب هوية الفقر عشرات القصص وألوان المآسي، ثم أخرج الكتاب الذي يتأبطه، وفتح على الصفحة التي كان يقرأ فيها، وراح يتم ما بدأ قراءته قبل صعود الحافلة!

كان الصمت الذي تفوح به وجوه الراكبين يحكي تعباً لا يمكن لغير تلك الملامح أن تنطقه، فكان يقرأ سطراً أو سطرين وأكثر ثم يلتفت خلفه لينظر إلى وجوههم باحثاً عمَّا يجعل إنسانيته أشد قرباً لملامحهم.

كان سائق الحافلة اليمني كثَّ الشارب وسيجارته يتطاير شرارها على صدره ووجهه ولايبالي، وتظهر بين شفتيه كلما التفت إليه بقايا أسنان تداخل فيها السَّواد والصُّفرة والتعفن والاهتراء، وهو يحاول التحديق إلى الكتاب كما لو أنه يمارس نزعة أمنية لطالما عرف بها الكثير من العرب في دول ربتهم أنظمتها على الفضول والتجسس، ليس لوطنية بتاتاً بل لنذالة لا يمكنهم التخلي عنها ما لم تزلْ تلك الأشكال المتهرّئة من تنظيم حياة شعوب هذه المنطقة!

٩

الكتابة هي الشيء الوحيد الذي يمكنه من إخراج ما يدور في رأسه وتعج به روحه، لذا كان يترك على صفحات الكتاب جملة هنا؛ خطًّا هناك تحت جملة ما، ويكمل النظر إلى الكلمات والحروف بقدسية تجعله يبدو للناظرين كأنه يقدسها، غير آبه لصوت الحافلة الذي يعلو جراء تلف عادم صوت محركها، فراحت تجعر بشكل يشعر المصغي إلى صوتها كأنها تسير بسرعة تتجاوز طاقتها.

أغلق الكتاب وأغمض عينيه تاركاً لمخيلته حرية الانطلاق، وها هو الآن عند باب سيارة أجرة سيستقلها إلى حيث لا يعلم، وقد وقف أمامه والده ينقده مبلغاً من المال لم يكن عمره يسمح له بالحصول عليه، ثم صافحه وشده إلى صدره كاتماً حرقة الوداع وقال له بلهجته العامية: «إن غبت غيب، وإن حضرت كن رجال طيب»، ثم صفعه على خده صفعة شديدة جعلته يشعر كأنه دخل متاهة لا يمكنه الخروج منها! ثم سمعه يقول له: «حتى لا تنسى أهلك وبلدك» وأدار الأب ظهره وانطلق عائداً إلى بيته.

وضع السائق فوق السيارة الحقيبة التي رتبتها أمه بحرقة قلبها لا بيديها، وأصعده في المقعد الأمامي وأدار محرك السيارة وانطلق بها شرقاً صوب الحدود السورية، فألصق هو عينيه بنافذة السيارة يلتقط من خلالها كل ما تمر به عيناه من صور، ثم يغلفها بدموعه الحارقة التي

لا يعرف مبرراً لها سوى اقتلاعه من جذوره إلى مجهول؛ يخافه قبل أن يلجه.

انقضت المسافات والمدة الزمنية المفروض عليه قطعها ليصل إلى حيث يقصد بين تفتيش على الحدود وتململ داخل مقاعد السيارات التي تنقل بها، وبين نوم جراء التعب وتوقف في استراحات، ولكنه لا يذكر أكثر من أنه كان يحس أن المسافة تزداد ساعة بعد ساعة وراءه.

توقفت السيارة التي استقلّها عند مدخل مسجد أم الطبول في بغداد، ترجل منها، تناول الحقيبة ووقف وهو ينظر إلى السماء، ثم استدار دورة كاملة باحثاً عما يمكنه من الإحساس بالمكان الذي هو فيه، إلا أن التشوش الذي كان يسكنه والضجيج الذي يثقل رأسه جراء السفر جعلاه يجلس فوق الحقيبة، ويلقي برأسه بين كفيه محاولاً الاسترخاء وتصريف بعض مما يربكه. ثم رفع رأسه ونظر يمنة ويسرة، نهض وحمل حقيبته، وانطلق سيراً على الأقدام؛ سائلاً الذين يمر بهم عن كيفية الوصول إلى العنوان الذي تمتم به مرات عندما انطلقت به السيارة بعد أن ودع أباه بغية حفظه.

أوقف سيارة أجرة وسأل سائقها عن العنوان الذي ينوي التوجه إليه، فأخبره أنه يعرفه جيداً، واشترط عليه اثني عشر ديناراً، ركب إلى جانب السائق وقد وضع الحقيبة في المقعد الخلفي، وانطلقت السيارة، وراح هو يستعيد صور وداعه لأبيه في مواقف شتورا على

أنغام أغنية أعجبته الكلمات التي فهمها منها، فسأل السائق عن اسم المغني، فأجابه بلكنته العراقية: ما تعرف حميد منصور؟؟ هذا المطرب المحبوب عند السيد الرئيس.

١٠

وهذه الأغنية بالذات! وأخذ السائق يغني مع المذياع «سلامات، سلامات وابعث سلامات» فيما راحت معدته تتقلّص وتتمدد جراء الحالة النفسية التي أصابته مع فهمه للكلمات التي تصدر بعذوبة وشجن من صوت حميد منصور!

كان يتخيل أمه وقد تكورت حزناً، تقبض بكفيها على رحمها التي لو كان الأمر لها لما تركته يغادرها ولو بقيت العمر كله حبلى به! لكنه قدرها أن يهجرها مرتين الأولى بعد الولادة والثانية عندما صفعتها قسوة وداعه وقد خلف وراءه ملامح وجهه المفجوعة بالتنائي عن أمه.

كان ينهار عشرات المرات جراء تصدعه كلما دار تحت جفنيه شريط الصور والذكريات الذي لايزال طافياً على السطح، ثم ينهض صباحاً باحثاً عن شيء يمكنه من إعادة بناء ذاته، فيتردد في أذنيه صوت أبيه، ويهزه الشوق إلى اللحظة التي أحدثت في روحه ثقباً إلى النور، فقد عرف مع صفعة أبيه أن له قلباً من حب وصلاة.

حين وصل إلى العنوان الذي سأل السائق أن يوصله إليه، أنزل حقيبته، وناوله الملبغ الذي طلبه، ووقف كعادته ينظر محاولاً اكتشاف

المكان من حوله! على سور البناء تتدلى ثمار البرتقال ببريقها الذهبي، وفي مكان آخر منه نشبت رؤوس سعف النخيل بإبرها الحادة، وعلى مقربة من كليهما تدلت أكف نبتة الصبار غير مرحبة بالزائر الجديد كما تخيلها حين راح يراقب أشواكها المنتصبة حدة وقسوة. صور متناقضة فوق سور واحد وتحت سماء واحدة وفي مكان لا يمكن لمن لم يره من قبل أن يصدق أن للبرتقال حياة في عمق هذه الصحراء التي شهدت منذ فجر التاريخ ما هو أقسى من تعايش إبر أكف الصبار ومسلات سعف النخيل وزهور أشجار النارنجمن حروب، ودماء، وفتن لايزال تردد صداها يرعب القاصي والداني.

حمل الحقيبة وعبر البوابة المعدنية الرمادية التي تفصل السور المكون من لبنات صغيرة من الآجر الشاحب، وخطا مقرراً أن يترك خلف ذلك السور كل استجداءات نفسه للإشفاق على ذاته؛ التي قرر أن يرص بنيانها وفاء لمطلب أبيه الذي ثبته صوت تلك الصفعة: «إذا غبت غيب، وإذا حضرت كن رجال طيب».

مسح بيده ما علق في ذؤابات أجفانه من حنين، وواصل سيره نحو غده المجهول؛ الذي يعرف وحده كيف يرصف تفاصيله وملامحه التي سيقطفها من تدلي قطوف أحلامه وأمانيه يوماً بعد يوم، لأنه قرر ذلك فقط وهو الذي يعرف كيف يقرر، ويفعل!

١١

على مقربة من تلك الأم المطمورة عيناها بالدمع ليل نهار، كانت آليات عسكرية لا يعنيها إن كانت قد أتت كما يشاع لإنهاء الاقتتال الداخلي، أو كما تحس هي بحدسها الأنثوي؛ أنها لن تغادر هذه الأرض مادامت قد وصلت إليها، وما دامت الأرض أرضاً والسماء سماءً.

اعتلى الناس أسطح المنازل والشرفات، ليطلوا على السهل الذي امتد عند أسفل سفح الجبل الذي تتسلقه بيوت البلدة، وراحوا يشاهدون الجرافات العسكرية؛ تمزق صدر ذلك السهل الذي كان يلمع اخضراره كما لو أنه صناديق من العقيق والزمرد؛ تشتعل بريقاً في قلب الـوادي، وتحدث فيها فجوات عميقة تملؤها بالدبابات والشوادر العسكرية، غير آبهة لحال الملاك، ولا لظروفهم، وأحلامهم ومخططاتهم التي لا يملكون رصيداً لتحقيقها غير ما زرعوه بخشوع وصلاة في باطن تراب حقولهم التي صارت محاطة بلوحات كرتونية ثبتت على عصي من الخشب وقد كتب عليها: منطقة عسكرية يحظر الدخول!

لقد باتت منطقة محظورة على مالكيها، هكذا هي الحرب، تمنح السلاح والألوان العسكرية وأحذية الجنود ما أفنى الناس سنوات من أعمارهم يكدحون ويكدون لامتلاكها، وإعمارها، وزخرفتها بغراس دفنوا إلى جانب جذورها مزقاً من قلوبهم وأرواحهم أملاً في أن تحيا ليقطف ثمارها أبناؤهم!

عيون تدمع حزناً، وأنياب تشد على الشفاه حقداً وعجزاً، ورجاءات لله والسماء والأئمة والصالحين بالانتقام من الغزاة الذين وصلوا من الشرق الذي لم يخرج منه منذ آخر الرسالات السماوية، إلى اليوم سوى الفارين من الموت، والراغبين في حياة أقل جوعاً ويأساً، والداعين إلى قتال الغرب الصليبي؛ الذي بحجته لايزال الشرق مصلوباً منذ ما يقرب من الخمسة عشر قرناً على خشبات أعتى الحكام الظالمين!

هذا الشرق الذي دفع الملايين من أبنائه إلى المقابر والمحارق والمحيطات وما بعدها، ولم يتمكن قطّ حتى اليوم من دفعهم إلى النور، رغم كل الزيف الذي حملته كتب التاريخ المزور عن إشراقات هنا وهناك، وعن رجال لامست عظمتهم قدسية السماء، فقد أخفى كتبة السلاطين، لعناتهم التي أسست لأنهار من الدماء لاتزال تسيل نقية الحمرة إلى الآن.

وقفت الأم كغيرها مستسلمة لحزن أثقل من أن تجيد أميتها وصفه أو التعبير عنه، بأكثر من الدموع، وفي داخلها نار تشتعل كراهية لضعف أولئك الرجال الذين وقفوا يتناقلون بأصواتهم أخبار الجرافات، وفي أي الحقول تعمل الآن، بعضهم يسخر شماتة من جاره الذي راحت تلك الحيوانات المعدنية تلتهم أشجار حقله، وبعضهم الآخر يردد عاجزاً «بعوض الله»، وآخر راح يتذاكى مبتدعاً خبراً مفاده أن الدولة لا شك ستعوض المتضررين، ودخان الآليات العسكرية يتعالى ويزحف

في سماء البلدة منذراً بغيوم لن تمطر إلا الهمّ والحزن والألم وشتاءات لا يمكن لأحد أن يعلم أو يتنبأ بربيع بعدها، يمكنه أن يغطي بزهوره وأعشابه البرية قبور الذين سيسقطون بأمطار رصاص ذلك الجيش الذي لن تعرف البلاد احتلالاً كاحتلاله من قبل.

١٢

لم يعد بمقدور الناس النوم دون إحكام إغلاق الأبواب والتيقّن من تثبيت رتاجها، أو اللجوء إلى دعامة معدنية تسند خلف الباب لتمنع فتحه من الخارج مهما جرى، لقد شل الخوف الذي انتشر بين الناس كل قدراتهم، وأحلامهم وقتل فيهم كل همة صوب الحياة، ذلك لأنه بعد أن أنهت الجرافات التهام الكثير من لحم الوطن المتمثل في تراب تلك القرية، استدارت مدافع الدبابات صوب القرية وراحت تدك أطرافها؛ استعراضاً للقوة، ولنشر الرعب في القلوب، فسقطت قذائف على بعض البيوت المتطرفة، التي كانت للرعيان.

وكانت إحداها نصيب قطيع من الماعز كان قد عاد مع مغيب الشمس إلى حظيرته، فقضى الراعي إلى جانب العديد من الماعز، في مشهد يؤكد وفاء كليهما لعلاقة بدأت منذ طفولته فتعالى الصراخ والنحيب في تلك الناحية المنكوبة، وكسا البلدة سواد أشد مرارة من سواد الحقد في قلوب أولئك الجنود الذين راحوا يسيجون المكان بالقصف الذي تعالى غباره إلى ارتفاعات مكنت القرى والبلدات

الواقعة خلف الجبال والتلال من استشعار الرعب القادم، وبدأوا يتهيؤون لترويض أنفسهم على تقبل الخوف والانضباط وتحمل الإهانات التي لن توفر لا آثماً ولا مقدساً!

استمر القصف ساعات؛ دون أن يتمكن أحد من الوصول إلى أرض المجزرة التي اختلطت فيها دماء القطيع بدماء راعيه، وثغاء الماعز الذي استحال عويلاً يشبه عويل النساء اللاتي اعتلين أسطح البيوت، داعيات الله أن يلطف، مناشدات مجهولاً أن يوقف هذا الجنون الذي انتفض دون أي مؤشر يسبقه.

مع ساعات الفجر الأولى وبعد أن هدأ القصف، ونام الجنود، تسلل الأخوان بو سليمان وبو عارف، وتمكنا من بلوغ مكان المجزرة، بعد أن غلفا ظهريهما بجلدي خروفين، وقطعا ما يزيد على الكيلو متر دبدبة على الأيدي والركب، وجلسا ينتظران بزوغ الفجر ليتمكنا من انتشال جثة الراعي سجعان؛ الذي لا يعلم أحد إن كان قد قضى، أم مازال حياً بعد هذه الساعات المليئة بالحلكة والغبار والحريق والدمار! وبعد أن بدأت كثافة العتمة تنقشع وتتضاءل أمام تقدم نور الفجر لمح بو سليمان شعر سجعان على مسافة أمتار منه، فراح يناديه هامساً والخوف يجعل أوتاره الصوتية ترتجف وتبدي رعبه، ولكن سجعان لم تصدر عنه أية إجابة، فتقدم منه الأخوان، ودنا بو عارف من وجهه، فوجده مازال يرمش بجفنيه، فصاح ينادي أخاه وقد غصت الحرقة في صدره «مازال على قيد الحياة»، وأجهش الاثنان بالبكاء؛ الذي لم يكن

بمقدور أي منهما أن يحدد إن كان مصدره الشعور بالفرح أم تكثف الحزن والقهر على ما جرى لهذا الضحية المسكين.

كان جسده منخوراً كغربال قديم تمزقت خيوطه الجلدية فاتسعت عيونها هنا، وضاقت هناك، وقد تيبس الدم فوق ما التصق بجسده من بقايا ملابسه، ومازال يقبض على عصاه التي أبى أن يتخلى عنها وهي التي تحملت عجزه ما مر من سنوات، وفي كل الظروف!

أمسك الأخوان بجسد سجعان، أحدهما بكتفيه، والآخر بقدميه، وحملاه وانتصبا غير حذرين مما يمكن أن يحدث لهما؛ فقد كان أقصى همهما أن يصلا به إلى البلدة ليتم نقله إلى المشفى.

١٣

لقد دخل المدينة في سن مبكرة ، وبالرغم من كل ما مر من سنوات على حياته فيها لم يدخلها ولم يدخل مدنيتها بشكل كامل كما ينبغي، لأنه ريفي بفطرته، ولطالما عانى بسبب تصرفاته الفطرية، دون أن يبلغ قدرة السيطرة على النافر من سلوكياته؛ كأن يطرق باب صديق دون اتصال مسبق، أو أن يعرج على زميل مر من باب العمارة التي يسكن فيها، ورغم تنبهه المتأخر لما ينتج من تصرفاته هذه من إحراج، إلا أنه كان يلقى منهم كل ترحيب وحسن ضيافة، لأنهم كانوا يعرفون نقاء سريرته، ويتفهمون صعوبة تكيفه مع سلوكيات المدينة! فالتكيف ذلك المصطلح الذي تحدث عنه كثيرون من علماء البيئة والسياسة

والنفس، مشيرين إلى أهمية هذه الميزة في طبيعة كثير من المخلوقات التي تمكنت بفضلها من تجاوز قسوة الحياة والكوارث والأزمات، وواءمت نفسها مع المحيط المتبدل، لتتخطى الانقراض، أو الانحدار إلى مخلوقات أقل، أو التصلب الذي يفقدها المرونة التي تشكل عجلة التكيف الأساسية. وعكس كل هذا، فقد سقطت مخلوقات عجزت عن التكيف، فاختفت مخلفة وراءها إما رسوماً خيالية توحي بخرافيتها كالتنين، وإما بقايا غير وافية لتمكن الدارسين من أبعد مما هو تكهن حول ماضيها كالديناصورات. إلا أنه كان يعتبر التكيف ازدواجية لا يمكن التحكم في حدود تناميها التي قد تلامس الإفراط، فما معنى أن يملك الإنسان حياة واحدة، ليعيش ازدواجية أو أكثر من ذلك، ولتنتج هذه الحالة صراعات تتفجر كل لحظة وكل يوم، بين الرغبة في الإنجاز، والشعور بضيق الوقت، الرغبة في الإنفاق، والشعور بالضائقة المالية، والشغف بالتغيير، والشعور بالعجز أمام حجم المسؤوليات؛ إنها حياة تستحق كل هذه الصراعات، أجل لأننا كبشر لم نَعِ بعد كينونتنا كما ينبغي، وما زلنا نعاني التغييب والتنائي بين آدميتنا، وكينونتنا، وناسوتنا، ما جعله يتوقف أمام مسألة انبثاق الحياة من الظلمة، وانطلاق رحلتها من عتمة تميزت فيها الأنوثة بذلك المصنع الصغير الذي يسمى الرحم، ما جعله يتساءل كيف تكون الأخلاق مجرد حالة للتعبير عن الرغبة في تجنب أية مهددات للحياة. ولأننا لا نفهم ما حولنا فقط بعقولنا، بل نفهمها بكل ما نحن عليه من روح وجسد ونفس ومشاعر

وعقل وحواس وعلاقات، لذا ترانا كل يوم نشعل فينا جذوة الخلود وشغف الخروج من جسد الحياة فينا إلى تفاصيلها خارجنا! لأننا كائنات بفطرتها تحب الحياة المثيرة والصاخبة، ولا تأبه كثيراً للحياة السعيدة، وإلا لِمَ يغامر شخص ما بحياته ليرتقي محلقاً في الفضاء؟ ولِمَ يصعد آخر ليقفز عن حافته، إلى كوكبنا هذا الذي لا نكهة للحياة فيه لولا الإثارة والمغامرات التي تنتج حباً فيها وتعلقاً بجوهر حيويتها، وتناقض ثنائياتها المدهشة؟ فما معنى أن تعيش سعيداً دون إثارة في يومياتك التي ستمر لولاها كما لو أنها قطار ينزلق فوق سكة دائرية وبلا توقف، فما الذي قد يثبت اكتمال دورانه فوق تلك السكة لولا الأحداث وتفاصيلها؟ وما الذي سيجعلنا نستمر في ركوبه لولا بهاء الزمن الطفولي الذي يسكننا لحظة بلحظة؟ إننا بذاتنا كائنات مثيرة، ومدهشة لما نحن عليه من تفاصيل وتعقيدات وتفرد وتشابهات ووو، لذا نظل نركب واحدة من مقصوراته وننطلق من نقطة الصباح، ونحن على يقين أننا سنعود إلى النقطة نفسها، وقد أوجدنا لها اسماً جديدا ألا وهو المساء.

١٤

لقد بدأ الناس يستبدلون سلوكيات أصيلة بأخرى دخيلة؛ دون أن تكون هناك أية مبررات منطقية لاستبدالها، فقد استبدلوا الصبر باللامبالاة، واستبدلوا الحلم بالبلادة، واستبدلوا الثقة التي كانت فيما

بينهم بالمداهنة، واستبدلوا الأنفة بالخنوع والرضوخ، حتى بات الأب يقرأ مع كل مساء وصباح مزاميره الانهزامية على أولاده، منهياً تلاواته بضرورة الصبر التي يقصد بها تقبل الحال الأكثر سوءاً وسواداً، بدل آمين التي كانت تشق الصدور بخشوعها، وبتنا نسمع الكثير عن طلاق لزيجات كانت قبل تلبد سمائنا بهذا الغيم الشرقي الأسود محجة للعاشقين، كل هذا لأن التنازلات في الحياة تستجلب تنازلات أخرى.

لقد قضى حسين سنوات يعشقها، ولكم ظل ليالي يسير في الزقاق الذي يمر بباب أهلها؛ صيفاً شتاءً؛ عله يلمحها، وهي التي كانت تسمع وقع خطواته بقلبها لا بأذنيها حين كان يقترب من البيت، كانت تفتح الباب، وحجتها سكب ما تبقى في قعر إبريق الماء الزجاجي في الشارع، لتملأه بالماء الجديد، فتتقن توقيت فتحها الباب على وقوفه قبالته، وقد سحب دخان سيجارته، لينير اشتعالها ملامح وجهه، فتبتسم له، ثم تستدير داخلة، وقد وضعت يدها خلف وركها الذي يعشق، لتلوح له مودعة، وينصرف هو حاملاً قلبه الذي يخفق كما لو أنه طير يرفرف داخل صدره؛ وقد أضاع سبيله للخروج فراح يصطدم، ويسقط ثم ينهض مرفرفاً، وقد ارتبط لسانه بعبارة «الله لا يحرمني منك يا يامنى» ويظل يرددها حتى يصل إلى بيتهم، فيقف أمام الباب، لينفخ زفيره، ويستعيد هدوءه، ثم يدخل، ليجد الجميع في انتظاره وقد تهامسوا، «ما بيلفي ع البيت إلا اذا تمسّا»، فيبتسم لهم، ويفرحه أكثر

قول أبيه «اتركوه، الله يبارك بالشباب، ولو عدت شاباً من جديد، فلن أترك شعر رأسي يبيض تحت سقف!».

لقد كافح حسين ومنى، وتزوجا رغم كل الظروف القاهرة، بعد أن أجلا زواجهما سنوات انتظاراً لفرج يأتي من الله، ولمّا يئسا من ذلك، قررا الزواج ولو اضطرا السكن في خيمة أو مغارة، وهذا ما جرى، فقد سكنا مع أهله بضع سنوات في غرفة، أنجبا فيها طفلين من أبنائهما، ورغم تقييد حريتهما، وراحتيهما؛ إلا أنهما عاشا سعيدين طوال تلك السنوات، حتى قدوم هذا الجراد الأسود الذي أتى من الشرق، والذي لم يذر لا نباتاً ولا بشراً أو حجراً يسلم من وحشيته، حيث راحت حياتهما يوماً بعد يوم تغرق في سوداوية ومأسوية من الصراعات التي لم تعد تتوقف رغم الكثير من محاولات الإصلاح والتوعية من أسرتيهما، ومن الأصدقاء، حتى بلغ الأمر حداً لا يطاق، وكل هذا بدأ بعد أن كانت إلى جانبه في السيارة يوماً، عندما مرا بحاجز للمحتل، طلب منه الجندب الرمادي الذي كان يستند إلى بندقيته أن يترجل من السيارة، لأنه لا يملك أوراقاً تثبت أن المرأة التي معه في السيارة هي أم أولاده، ولأنه غضب، وتمرد على طلب ذلك الكائن القبيح، حاول الأخير صفعه، فداس دواسة الوقود وانطلق بسيارته كالبرق، وهو يشتم ويصرخ ويستشيط غضباً، فقد استشعر رغبة جندي الجراد هذا على ذلك الحجز، وكان هو شديد الغيرة عليها، وراح أزيز الرصاص يتعالي خلفه؛ فيحس بالطلقات تمر بجانب سيارته، وراحت هي تصرخ توقف،

توقف قبل أن يصيبونا، ويقتلونا، إلا أنه لم يصغ، وواصل قيادة السيارة، مسرعاً، مفضلاً الموت بطلقاتهم، أو بحادث سير على أن يهان أمامها، ويقتاد إلى السجن بلا أي جرم، وهو صاحب الأرض والبلد والعرض.

١٥

ولايزال – بالرغم من مرور سنوات على تلك الحادثة – يستيقظ من نومه وقد تصبب عرقاً، ويده تبحث عنها لتتحسس استلقاءها إلى جانبه، وليميز بين إن كان في حقيقة هو أم في حلم، ولكم كان يحس بالرعب إن أفاق ولم يجدها إلى جانبه، فيتعالى صراخه، وإلحاحه في السؤال «أين أنت؟ أين أنت؟» وتأتي هي راكضة لتطمئنه أنها كانت تشرب الماء، أو أنها دخلت الحمام، أو كانت تقضي أمراً ما! فيطلب منها كوب ماء، ليشربه ثم يضع الكوب فوق الطاولة بجانب رأسه، ويشدها من يدها ليطوقها بذراعيه، ويخلد إلى النوم من جديد، وهو يردد «الله لا يحرمني منك يا منى»!

لقد صار قلقاً، شديد التوتر، سريع الغضب، وما عاد بإمكانه العبور على أي حاجز من حواجز ذلك الجيش الأسـود، إلا وقد انتابته نوبة من الهلع والخوف متسائلاً في نفسه: «ماذا لو لمحني ذلك القذر؟» ولأن أفكار الإنسان المخزنة تستجلب ما يريد حدوثه له، حدث ما هرب منه سنوات طوالاً. لقد لمحه ذلك الجندب القذر، ولكنه لم يستوقفه على الحاجز الذي مر به، ولسوء حظه كان هذه المرة

في حاجز أقرب مما تخيل من سكنه، لذا ركب السيارة التي كانت خلفه عند توقفه على الحاجز، وطلب من السائق اللحاق به.. كان السائق كغيره من الناس، يعجبه أن يسترضيهم ليمر عليهم بأمان ولو على حساب إيذاء الآخرين، فهذه واحدة من تلك السلوكيات التي تأصلت في الناس بعد أن وصل هذا الجراد الشرقي. بقي يقود كعادته حتى وصل إلى البيت؛ غير متنبه للسيارة التي تسير خلفه، نزل من سيارته، وصعد إلى بيته القائم في الدور الثاني، في منزل كان عبارة عن دورين، يصل بينهما درج مكشوف يمكّن المراقب من معرفة الباب الذي دخل منه. مرت دقائق بعد أن دخل البيت وأغلق خلفه؛ حتى سمع الباب يطرق بمفتاح طرقات خفيفة! قال لزوجته: انظري من في الباب؟ فمشت باتجاه الباب وهي تسأله عن تفاصيل اعتادوا الحديث عنها دون مشقة أو تفكير، لكنه تنبه إلى أن زوجته انقطعت فجأة عن الكلام، فتوجس خوفاً، وقطع المسافة من الغرفة التي دخلها ليستبدل ملابسه بسرعة؛ ليقف خلفها بخطوتين فقط! لقد عرف أن صاحب الوجه الذي يقف عند الباب هو ذلك الجندب القذر الذي حول حياته برمتها إلى تيه.. بقيت الزوجة صامتة تحاول تكذيب نفسها، وبقي هو يعيد ترتيب ثيابه لاإرادياً، فيما دخل الأخير مترنحاً مختالاً، دون أن ينتظر الإذن بالتفضل، متقدماً من الكنبة، ليجلس فيها واضعاً قدماً فوق أخرى، وهو يهز برجله التي توحي إشارتها هذه بالشر المنتظر. ودون أن يسمح للخوف الذي بداخله أن يطغى عليه، سارع الزوج إلى القول:

- تفضل، بم يمكننا أن نخدمك؟
- يبدو أنك لم تعرفني؟؟ قالها عنصر الأمن باستفزاز وسخرية!
- لا لقد عرفتك، فهل أتيت لتتيقّن من أوراقنا الثبوتية، داخل بيتنا؟
- لا لقد تحققت الآن، ولكن أتيت ملقياً السلام، وناشداً بناء صداقة بيننا، فأنا جاركم في الحاجز الذي تجاوزته منذ قليل، ولا بد أن تحتاج إلي قريباً جداً!
- لن أحتاج إليك، وشكراً لك على الزيارة، هل من شيء آخر؟ هز عنصر الأمن رجله مردداً: لا لا لا، دون أن نشرب فنجان قهوة؟ هل ترضاها لنفسك لو كنت أنت ضيفنا؟ ولا تنس أنا هنا إلى جانبك، وبأي لحظة يمكنني أن أطلبك إلى المركز للقيام بواجبك!

١٦

في الحرب يموت الفقراء والضعفاء، ليكونوا مادة لوسائل الإعلام فقط، أو لتعلق صورهم على الجدران وأعمدة الكهرباء، ليستثمر سقوطهم كلما أراد المستثمرون ذلك، أولئك الدهاة الأقوياء الذين يستثمرون كل إمكانياتهم في الحرب، ليصبحوا أبطالاً، أو أغنياء، أو زعماء! فيما يسعى البسطاء لعيش أيامهم محاولين تجنب الألم قدر الإمكان.

كلما اشتاق إلى أمه أغمض عينيه وراح يستحضر رائحتها، تلك التي كانت تفوح منها وهي تغادر التنور، وقد تغلغلت في ثيابها روائح الدخان، والخبز، والعجين، والطحين، وبعض من رائحة نشارة الخشب التي كانت ترشها داخل التنور لتسعِّرَ اشتعال النار من حين إلى آخر. لقد علمته هذه الأم بصمتها حباً، لا يمكن أن يتعلمه من دواوين الشعر كلها، كانت تنظر إليه وعلى طرف شفتيها ابتسامة بإمكانها أن تشعل قلوب الحاقدين فرحاً إذا ما رأَوها، وترسل من عينيها نظرة ناعمة تنبعث من وجهها الموناليزي الأسمر كصلاة. فيطيل تمدده في فراشه وقد علق عينيه إلى سقف الغرفة ، ليتسلقه بأحلامه محاولاً الخروج منه، ليطوف في عوالم الأمس الذي انصهر مع الطفولة في خبرات نفسية تغادره من حين إلى آخر دموعاً أو غناءً حزيناً، أو آلاماً جسدية. وقد ظل يفكر وقتاً في مواقع التواصل الاجتماعي، وكيف أعادنا الفيس بوك إلى عالم الطفولة؟ وربما أعاد إلى دواخلنا براءتها، وأراجيحها، وألوانها، وأصواتها وسوحها، فأعاد إلينا تلك الجدارات التي اعتقدنا للحظة أننا افتقدناها، فرجعت إلينا أقلامنا الرصاصية، وراحت تنشط خطوطها فوق جدران منازلنا، ومدارسنا، ومراحيضها التي اشتقنا إلى روائحها الكريهة، وأعاد إلينا هذا المخلوق العالمي ألواننا التي كانت تحترق فيها أصابعنا فوق أي مساحة كنا نصادفها وقد أثارت فينا الشهية للرسم، وعدنا نلون كما كنا أغلفة كتبنا ودفاترنا، وعدنا نملأ المساحات الفارغة التي كانت فيها، وأسطح طاولات

المدارس بمشاعرنا ورسومنا، وأفكارنا المراهقة الثورية والفلسفية، وخلق فينا الشعراء والكتاب والمبدعين المشهور منهم والمغمور، وأحيا فينا عاداتنا الجميلة وكل طقوس الأمس الجميل، ولو فوق هذا العالم الافتراضي.

١٧

وعدنا نكتشف في دواخلنا أهواءنا الجنسية، فنقيم تلك العلاقات التي كنا نراها في مخيلاتنا ولا يراها سوانا، وفتح فينا كل النوافذ والشرفات التي ظننا أننا أغلقناها إلى الأبد، فإذ بنا نطل من جديد عبرها على العشق، فنرسل القبل التي نطبعها فوق انضمام أصابع أيدينا، التي علت من جديد تلوح لأحبة تغيرت أسماؤهم ووجوههم، وما تغيرت حاجاتنا إليهم. وعدنا نحب الخروج للعب كما كنا سابقاً جماعات جماعات، وبتنا أطفال حارات من جديد، وإن كنا أطفال حارات فوق صفحات الفيس بوك، إلا أننا عدنا نلعب، ومع كل منا تلك الحلاوة الخاصة التي وضعتها أمه في جيبه قبل الخروج، ليتناولها إن جاع؛ لكنها هنا في الفيس بوك بمثابة لهفة البحث عن متابع جديد، نكتشف طباعه وملامحه وأهواءه وأحلامه، فنخاصمه ونعاديه، أو نألفه ونصادقه، ومن ثم نعيش معه مناخات الشللية التي كانت لنا في طفولتنا!

لذا نثر صور أمه وأبيه وبعض الأهل والأصدقاء على هذا الموقع عبر مقطع فيديو رافقت حركة الصور فيه أغنية للمطرب اللبناني وائل

كفوري «ناس منتلاقى فيهم» وظل يعيد عرضه ويعتصر شوقاً وبكاء، متسائلاً «لِمَ كلما نناى تلتصق بنا الذكريات التي تشعلنا حباً وشوقاً وحنيناً، ثم تحولنا إلى جمار تحت رماد، ما أن تحركه لفحة تذكر حتى نشتعل رغبة في العناق والبكاء!».

نمسك بالأوراق لنصب فوقها الكلمات فرحة، حزينة، غضبى، مسالمة، حمقى نبيهة، نتنة، عفيفة، تافهة، مدهشة، ركيكة، نقية، عكرة، عبقة، متعفنة، نبيلة، مذلة، رائعة، محرجة، ذابلة، نشطة، رافعة، خافضة، رحيمة، قاسية، وعاتبة صادمة، تنسلخ عن جوارحنا انسلاخاً يشبه بآلامه تعقيم جراح موغلة بأشد أنواع المعقمات حرقاً، فنرقص ألماً، وتأففاً ، وعويلاً، وتوتراً، ثم ننزاح عنها إلى غير رجعة بحثاً عن سواها في عالمنا الجواني الذي لا يجف رغم كل محاولات نضح اللوعات والصراخ والضجيج منه. وكل هذا لأجل متعة جديدة في ألم جديد. لذا تسقط أرواحنا جزءاً فجزءاً منهزمة أمام عقل وقلب خيَّبا ظن البشرية وآمالها وشوَّها كل ما وفرته لنا الطبيعة بترخيصه إلى منفعة واستهلاك، حتى غدا الإنسان مجرد تسميات تُسَطِّحه لحظة بلحظة كلما سمع أو رأى واحدة منها عبر وسائل النشر الجشعة كمستهلك ومشاهد وعميل ومتابع ومستمع، ما يؤكد ضعفه وعجزه اللذين يفرضان عليه حياداً سلبياً، فتحولت الفيزياء من طاقة روحية تبرهن انسجام الكون إلى آلات حركية تقرض بتطورها سعي الإنسان نحو الخلاص، وتدمره ، ولم تعد الكيمياء مجرد محاليل طبية وأدوية علاجية أو وصفات سحرية، بل

تحولت إلى سم وترياق للقتل والموت، ولم تعد الرياضيات مجرد أرقام نستدل بها على وظائف الكون بمكوناته النجمية والروحية الهائلة، بل غدت أرقام عملات ونقود تثير هلع الغريزة وجشعها، وتحفز العقل على ابتكار المزيد من طرائق استغلال الأرواح النقية.

لذا غدت البشرية بأمس الحاجة إلى ديانات جديدة، وأساليب شتى لترميم ما يهدمه العقل والقلب كل يوم، وغدت مسؤولية تنقية الأرواح أشد إلحاحاً لمصالحة يمكنها أن تستر ما يتفشى عن ضعف معالجة الأمراض العقلية التي تصيب الإنسان من تعصب وتطرف وأحكام مسبقة، ومحاكمات عن بعد، وإدانات، واستنتاجات قهرية.

١٨

كان يسير في شارع الرشيد في بغداد، والموسيقى والأغاني الشعبية تصدح من مسجلات المقاهي الممتدة على طول الرصيف، لتشكل مع قرقعة أكواب الشاي وأحجار الدومينو لوحات سمعية لا يمكن للأذن أن تلتقطها في غير هذا المكان، فيتأمل الوجوه التي تضج بتواريخ شتى، ويلمح الأكف التي تلعب الدومينو من خلل دخان السجائر الذي كان يمتشق فضاءات المقاهي والشارع كما لو أنه ضباب تسلل إلى قلب هذه المساحة التي تخيلها للحظة ذلك الوادي الذي يمر أسفل السفح الذي تتسلقه قريتهم بمبانيها العشوائية، قبل أن تأتيه قوافل الجيش الأسود، فيما الناس يسيرون في هذا الشارع كأنهم أفاع منتصبة

ينسل بعضها من بعض بسلاسة وليونة لا يمكن ألَّا تلتقطهما أعين المراقبين.. على مسافة قريبة وقفت فتاة بقميصها الأبيض وتنورتها الرمادية، التي علت فوق الكاحل بقليل، تمسك قرناً من الموز وتدسه من بين قضبان رمادية اللون لقفص يقبع فيه نسناس، صغير الحجم، باد على وجهه العمر، فيتناول يدها بيده ويمص قرن الموز تارة ويقضم منه القليل طوراً، فلفت انتباهه كيف يمسح هذا النسناس بكفه فوق كفها، فاقترب يراقب بهدوء، مشهد الحب بين كائنين لا مشترك بينهما إلا قرن الموز وهذا الشارع. فتحت الفتاة آخر قشور قرن الموز جيداً، ومدت به إلى النسناس الذي مد بكفه إلى كوع يدها الممسكة بالقرن، وجذبها إليه، فاقتربت ظناً منها أنه يريد أن يتمكن مما تبقى في القرن، إلا أنه باغتها، ومد يده الثانية إلى خلفها، وأمسك بالتنورة من مؤخرتها، وغرس أصابعه فيها وشدها بقوة، فتعالى صوت تمزق القماش، يسابقه صراخ الفتاة المنتفضة خوفاً من حركته، ما دفع الجميع في الشارع إلى الالتفات نحو مصدر الصوت، ليتعالى بعدها الضحك، والتأوه، وأصوات الكلمات المستنكرة لهذا الفعل، فيما تراجعت الفتاة إلى الخلف وقد سحبت يدها التي أدماها انسحابها من بين أظفاره، وراحت تتحسس بيدها ما جرى لتنورتها، حتى علمت أن يدها قد لامست لحم مؤخرتها من الخلف، فحارت في أي اتجاه تستدير، لتستر عريها. تقدم منها، وسارع في خلع قميصه عن جسده، واقترب ليلفها به ويناولها أكمامه، لتعقدها فوق خصرها من الأمام، وأمسك

بيدها وراح يسحبها، وهو يسير مسرعاً، وهي تلحق به دون أن تستغرب أو تسأل إلى أين، فقد كان جل همها أن تغادر ساحة الهرج والمرج التي ألقت عليها بكل ظلال الحرج والخجل.. ثم دخل بها زقاقاً يتفرع من شارع الرشيد مغطى بالأقواس من الصفائح، وسار حتى استقر به المكان في زاوية مخفية فأوقفها، وقد جعل ظهرها يحتمي بين جنبي تلك الزاوية، وهمس: «انتظريني هنا دقائق، وإياك أن تتحركي من هنا». ثم اختفى في الزقاق تاركاً إيّاها بين أكثر من تساؤل واحتمال عن الجهة التي قصدها، وعن نياته التي لا يعلمها سواه.

١٩

لقد أحدث حبها فيه فجوة عميقة عمقاً أكثر مما توقع، فما زال منذ ذلك الحب يفر هارباً خشية أن يطل برأسه على تلك الفجوة! فأن يلتقي المرء من يفتح روحه وقلبه على الحياة بمثل هذا الزخم والجرأة والإقدام، ليس بالأمر المحتمل حدوثه غير مرة في الحياة.

أن يمسك بيد شخص ليتسلق به قمة في جبال أطلس، ليقيما هناك في كهف أياماً يقضيانها في اكتشاف الكون من جديد بين قراءة وكتابة، وثرثرة وفلسفة وحب وجنس، وطهو للطعام على نار يشعلانها بما يجمعانه من حطب تناثر هنا وهناك، وجلوس أمام النار المشتعلة وسط الكهف ليلاً، وكتابة على جدرانه بالسكين التي بقيت مغمدة في شق من شقوق جدران ذلك الكهف، أملاً بأن يأتي أحد ليكمل بها ما بدآه!

أن يسقطا معاً عشرات المرات أثناء النزول في ذلك الانحدار الحاد؛ دون أن يفلت أحد منهما يد الآخر.

أن يقتسما الماء الذي كانا يحملانه في تلك القنينة، التي وضعاها بعد أن فرغت تحت صخرة، أملاً في العودة إليها يوماً مجتمعين أو منفردين.

أن يفترشا السفح تحت السماء ليلة كاملة وهما في طريق العودة إلى الفندق، ليَعُدَّا آلافاً من النجوم، ويختار كل منهما نجمة يتعهدها بابتسامة، وبإطعامها الماء والسكر كل يوم.

أن يسيرا أياماً صعوداً ونزولاً بين الصخور والأشجار، فوق السفوح في الغابات، وكلما هدهما التعب تمددا وألقت هي برأسها على صدره.

أن ترسم له على وجهه بالوحل الذي أوجدته من سكب التراب في ما تبقى في القنينة من مياه، بعد أن خضتها، وتقوم بتلوين جبينه وخديه به، وتقبل فمه كلما اشتعلت شوقاً أثناء قيامها بما تفعل، ثم تفرغ المحلول بالكامل فوق وجهه وهي تضحك وتردد «أنت هكذا أجمل، أنت هكذا أكثر آدم، أنت هكذا أقرب إلى بداية الخلق» وتعضه من شفته ومن عنقه وتحشر رأسها بين ذراعيه فوق صدره.

أن يخلع من قدميها الحذاء ويقوم بتدليكهما، ويحتضنهما ويقبلهما، وينفخ بأنفاسه عليهما ليخفف من حرارتهما بعد أن سارا أياماً.

أن يرافقها لتلبي نداء الطبيعة خلف صخرة أو شجرة ليلاً.

أن يقوما بتقليد أصوات الحيوانات والطيور، ويصرخا كالمجنونين في الوديان والتلال، ويضحكا لتردد صوتيهما نهاراً، ويخافا بعد أن ابتلع الفراغ صوتيهما ليلاً فيحضن كلاهما الآخر، ويصمتا.

أن يأكلا الخبز الذي تيبس؛ لأنه آخر ما تبقى لديهما، ويتقاسما آخر حبة طماطم في الزوادة.

أن يحشرا جسديهما؛ ليناما في كيس النوم الوحيد، ويتقلبا ليلاً معاً كأنهما بداخله جسد واحد.

٢٠

أن يستعملا فرشاة أسنان واحدة ويسرح كل منهما شعر الآخر بأصابعه، ويقترحا البدائل لما نفد منهما.

أن يتخيلا شكل الطفل الذي سيولد بعد كل علاقة يقيمانها، ويتسابقا في رسم ملامحه في مخيلتيهما.

أن يسرد كل منهما ملمحاً مضحكاً مر به أيام الطفولة، وملمحاً قاسياً لا يستطيع نسيانه.

أن يجري أحدهما خلف الآخر وترميه هي بالحجارة وأغصان الأشجار، وهو يتوسل ويقسم ألا يعود لتكرار ما أثار حنقها.

أن يمضغ كل منهما ورقة شجرة ليكتشفا طعمها، موصياً الآخر في حال كانت تلك الورقة تحوي مادة سامة أو قاتلة، بما يتمنى أن يفعله له بعد الموت!

أن يبكيا لأنهما لا يملكان حياة أطول مما قدر لهما من حياة ليعيشا هذا الحب، ويضحكا لأي سخافة تصدر عنهما.

أن يحملها على ظهره كلما تعبت وتغفو، فيستند هو إلى حجر وقد أبقى عليها فوق ظهره ليرتاح قليلاً ثم يواصل المسير بها.

أن يتأمل وجهها كلما غفت إلى جانبه، ويبقى وقتاً طويلاً يغمض عينيه مُخَزِّناً ملامحها في ذاكرته، ثم يعود ليفتحهما ليتحقق مما فعل، ويقبلها في الهواء عشرات القبل؛ كي لا يوقظها.

أن يقترب بأذنه من أنفها ليصغي إلى صوت أنفاسها وقد أغمض عينيه مستمتعاً بما يسمع.

أن يضع أنفه في فمها ويرجوها أن تتنفس ليعب هو من زفيرها عشقا وحباً.

أن يتركها ليغيب عنها دقائق قليلة، لأنه مسكون بالحزن والدمع، ثم يكتسي ابتسامة على شفتيه ويعود إليها جارياً وقد فتح ذراعيه، فتركض هي باتجاهه وتقفز لتعقد ساقيها حول خصره وتتعلق بذراعيها في عنقه وتنهار على وجهه بالقبلات.

وهي تسأله بغزارة وإلحاح: «أين كنت؟ لِمَ رحت وتركتني؟ لِمَ تأخرت، لا تفعلها مرة ثانية، لقد خفت عليك».

ما هو الممكن لردم مثل هذه الفجوة التي ستظل مفتوحة سنوات، وقد اشتعل في عمقها السحيق حبٌّ أَزَلِيُّ الشوقِ والحنين، يستحيل إخماد اشتعاله بأي حب آخر مهما كان.

فالحب يا نينا يأتي مرة واحدة حقيقة، ولم يأت إلا معك بكل حقيقته الجميلة والقاسية، والباهتة والمشتعلة ألواناً، الصافية والدكناء غموضاً ويقيناً، المكتظة شكاً وتساؤلات، المتشابكة احتمالات وحزناً وفرحاً، وخوفاً وطمأنينة، وقلقاً وسكوناً.

آه يا نينا ما أصعب دروب الفرار خوفاً من الالتفات إلى تلك الفجوة التي خلفها حبك، وأي وسيلة لوقف هذا الفرار؟!

٢١

لقد فر من كتاب إلى كتاب، ومن مطار إلى مطار، ومن سفر إلى سفر، ومن مدينة إلى مدينة ومن بشر إلى بشر، ومن ثرثرة إلى ثرثرة، ومن حزن إلى حزن، لقد بات يقتني الحزن لنفسه يا نينا، بحثاً عن أشد ما يمكن من تكثيفه عله يردم ما يراه في عمقه من فراغ وخلل أسفل تلك الفجوة.

***

حين عاد لمحته من بعيد يحمل بيده كيساً، دون أن تحاول أن تخمن ما محتواه. كل ما كانت تفعله هو الإمساك بعقدة القميص الذي لفه حول خصرها ليواري ما بان منها بعد أن تمزقت التنورة، وهي تنتظر انتهاء المسافة التي تتقلص مع خطاه كلما دنا منها.

دون أن يتكلم معها فتح الكيس، وأخرج ما بداخله، وفرده أمام عينيها لتظهر أنها تنورة جميلة جداً وأنيقة، وانحنى أمام وقوفها طالباً

إليها أن تدخل رجلها في عنق التنورة، وفعلت هي دون أي نقاش، ثم أدخلت الأخرى، وقام هو برفعها فوق التنورة الممزقة، ثم طوقها بذراعيه وهو يعقد أزرارها من الخلف، فيما انشغلت هي بتنفس عطره المنتشر عند أسفل عنقه. وهمس لها اخلعي تلك التنورة وقد أخذ القميص وراح يرتديه.

خلعت التنورة الممزقة ووضعتها في الكيس، مرددة: سأحتفظ بها للذكرى، ثم سألته ولكن قل لي كيف تدبرت أمر ثمن هذه التنورة؟ وراحت تدور راقصة أمامه وتنهال عليه بالأسئلة العفوية «هل هي على مقاسي؟ أتراها جميلة؟ أخبرني كيف تبدو عليّ؟» ثم تضحك وهي تقول: عليّ أن أعود لأشكر ذلك القرد الذي صنع معي هذا المعروف، فلولاه لما حصلت على تنورة جديدة هذا اليوم! ثم أمسكت بيده وشدت عليها بقوة وهي تقول: شكراً لك. ولكن من أين أتيت بالمال؟

فأجابها وهو شارد النظر في الرجاء: الحفاظ على من نحب يفتح لنا ألف سبيل وسبيل، لقد تركت هويتي عند صاحب المحل إلى أن أحضر له المال.

ثم انطلقا يتجاوزان الزقاق عائدين من حيث أتيا، وهي تسير كما لو أنها ترقص فرحاً على أنغام موسيقى تسمعها لأول مرة، وعلى وجهها ابتسامة، تتلألأ منها إشراقات السعادة كلما التقت عيناه عينيها، وقد برقتا بالحب.

٢٢

في حديقة أم الربيعين، وسط منطقة راغبة خاتون، وبعد العصر تحديداً، وأثناء مروره سمع حواراً يدور بين مجموعة من الشباب الذين تحلقوا فوق العشب ليشربوا بيرة شهرزاد المحلية الصنع، وراحوا ينادون عباس؛ ذلك المجنون الذي عرف في المحلة كضحية من ضحايا الحرب العراقية الإيرانية التي تجاوزت بأعدادها الحد المقبول، واكتظت على الجانب العراقي منها مستشفيات الأمراض النفسية بأعداد هائلة، فيما كان يسمع الصراخ والعويل الذي يتعالى من مستشفيات الأمراض العقلية لمئات الأمتار بعيداً عنها!

وراح الشباب يلحون على عباس في الجلوس معهم مرددين: «تعال اسكر معنا!» فأتى رده صادماً لهم، وأثار ضحكاً جنونياً فيما بينهم حين قال: «أنتم تسكرون لتجنّوا، فلم عليّ أن أسكر أنا المجنون؟!» وابتعد مغنياً، وهو يعدل بيجامته المنزلية برفعها إلى ما فوق خصره من حين إلى آخر.

عبَر الحديقة وقد أفاقت في رأسه عشرات التساؤلات، والتحليلات، ورزحت روحه تحت سحابة كآبة حادة، فشبك أصابعه خلف رأسه أثناء السير وراح يصفر لحناً اعتاد صفيره كلّما أحس بالحزن.

كانت رؤيته في الغربة منصبة على تقليص سنوات البعد عن الأهل والوطن، والجوع والعري، والحاجة والسؤال، رغم أنه كان يؤمن بفكرة

«إن تقليص الحاجات يوفر الكثير من الألم» إلا أن الحاجة لإنهاء الألم كانت أقسى وأشد حاجاته التصاقاً به، طوال سنوات المسافات التي كانت تفصله عن طفولته وذكرياته وذويه.

كان الليل قد بدأ ابتلاع ملامح الشوارع والبيوت على جانبيها، تلك البيوت التي كانت تنتظر بحزن أسود عودة مغادريها غير المضمونة من جبهات القتال، فكم ابتلعت نيران تلك الحرب أحلاماً وشهوات وأجساداً، وعلاقات وآمالاً..! وكان أسهل ما ابتلعته المال والحجر والمعادن، لأنها سهلة الاستعادة والتعويض مقارنة بتلك التي ستظل إبراً تمزق في الذاكرة مهما تقادم عليها الزمان.

لقد كان لكل بيت قصته وحكايته، وكم توقف عند بعض العتبات، دون أن تكترث النسوة الجالسات لتوقفه إلى جانبهن، أو لربما سرهن وجوده ليكون شاهداً على لوعاتهن وآلامهن ودموعهن؛ كلما رحن يتبادلن سرد قصص تعارفهن على رجالهن أو أزواجهن أو أبنائهن العائدين جثثاً مشوهة من الحرب! ولا يقطع السرد إلّا موال إحداهن التي راحت تغنيه نواحاً على من فقدن، فيجلس إلى جانبهن القرفصاء، ويشاركهن في الإنصات، والبكاء، والدموع إلى أن ترتاح إحداهن وتتنبه لوجوده، فتبادره بالأسئلة، عن اسمه وبلده وكيف وصل إلى بلادهن، وعن أهله وديانتهم وحالهم، وأخبار تلك البلاد التي ربما لم يسمعن بها من قبل، لكنهن استلطفن الفتى، ولأجله رُحنَ يصغين

لما يسرده لهنَّ من أخبار، فيشفقن عليه ويتعاطفن معه، ويرفعن أيديهن دعاء للكاظم والعباس، يتوسلن إليهما أن يخففا عنه حزنه ويعيداه إلى أهله سالماً، ثم ينهض مودعاً، ليكمل طريقه، مخلياً لهن المكان ليتممن طقوس الحزن والغربة والشجن هذه.

٢٣

لم تكن تلك اللقاءات لتخفف عنه آلامه وحزنه، بل كانت تثقل قلبه باللوعة والألم على ضعف أولئك النسوة اللاتي كُنَّ لا يملكنَ حولاً ولا قوة إلا ضعفهن والشكوى والأنين من حرب؛ ليس لهن منها إلا الثكل والحزن واليتم والموت.

***

ما عاد الناس في ذلك السهل الذي له مع كل فسيلة نبتت بأرضه ذكرى وحنين يهتمون بتطورات الحرب والاحتلالين اللذين فرضتهما على بلدهما تقاطعات مصالح الدول العظمى والمستفيدة، لذا انصرف الجميع إلى التكيف مع واقعهم الذي جعل من بلدهم سجنين متضادين في الظاهر، متفقين في المضمون على نوعية السجناء الذين يجب أن يودعوا هذا السجن الكبير.

في أصوات الناس كما في وجوههم انكسارات هائلة، باستثناء تفاوت الأعمار؛ فالانكسارات تحدثها التجارب في الذات والكيان؛ دون أن تكترث لقدرة السن على التحمل أو تقبّل نتائج هذه التجارب،

فكم من طفل وضعته التجارب في بحور هائجة يكاد تلاطم أمواجها يحطم أقسى الجبال، فحمل تجربته على كتفيه صليباً وسار بها صامتاً، جل ما يرجوه أن يلمح أحد هذا الانكسار، لتكون أضعف أنواع الشكوى!

كان الصيف شديد الحرارة والوقت منتصف النهار عندما أتاه صديق الطفولة يلهث وبيده بندقية رشاش، محاولاً التقاط أنفاسه ليخبره بما جرى، وكل ما فهمه منه عبارة «انتعل حذاءك وقم معي». فعل ما طلب منه دون أي استفسار، وخرجا معا يتسلقان السفح الممتد خلف منزله، وقد علم بعد أن قطعا مئات الأمتار صامتين، أن صديقه قد قتل أباه بطلقة في صدره في إثر شجار عائلي؛ عرفه جميع أبناء القرية، ما يعني عدم الحاجة إلى مزيد من الإيضاحات، كما عرف أنهما في طريقهما للالتحاق بأحد معسكرات التدريب التابعة للثورة الفلسطينية، وكان جل همهما أن يخفيا عن آمر المعسكر حقيقة ما حدث، خشية أن يرفض التحاقهما، أو أنه قد يقوم بتسليم صديقه إلى الأمن، ليدخل السجن سنوات قد تطول، أو لينال حكم الإعدام!

كان صديقه يجري قافزاً من صخرة إلى صخرة، وهو يعلم أنه يفر مما يطارده، فيما كان هو يركض خلفه كما لو أنه يحمل قلبه بيده لشدة التعب والخوف، والارتباك من المجهول الذي ينتظرهما.

لماذا عليه أن يكون وفياً لمن قتل أباه، ولِمَ قصده هو دون سواه؟

وكيف سيواجه هو أباه الذي سيأتي بحثاً عنه ليعيده إلى البيت، وبم سيجيب إن سأله أحد ما عن علاقته بما جرى، ولِمَ أقحم نفسه في هذا المشكل؟ لكنه واصل السير مقنعاً نفسه في حديث داخلي معها «سأوصله إلى حيث يشعر بالأمان ثم أعود إلى بيتي، قبل غروب الشمس»، وراحت التساؤلات يجرّ بعضها بعضاً، فمرة يتساءل، وماذا لو اضطرني آمر المعسكر للمبيت معه؟ أو طلب مني هو شخصياً أن نفر من المعسكر إلى معسكر آخر فيما لو شعر أنه غير مطمئن لحمايته من الدوريات التي راحت تجوب الأزقة وضواحي القرية بحثاً عنه؟ وكيف لعاجز مثله أن يحمي قاتل أبيه وماذا لو أن أحداً أخبرهم أنه لمحه يسلك هذه الدرب؟ وما هو الموقف لو أن الشرطة ألقت القبض عليهما معاً؟ فكيف سيبرر وجوده معه كصديق متعاطف ليس أكثر، وأنه لا علاقة له بما حدث لا من قريب ولا من بعيد؟

٢٤

كانت الشمس قد لامست ذؤابة قمة الجبل بما تبقى من خيوطها المسترسلة في الأفق، حين راحا يسلكان وادياً يقع في منتهاه مخيم الثورة الفلسطينية، وراح الظلام يتطاول عالياً باتجاه أعلى الوادي، ما اضطرهما للسير صامتين، يزيد الحذر من خوفهما، وصديقه يمسك بالبندقية بيديه كلتيهما، فكأنه على أهبة الاستعداد للإيغال في القتل، وقد غاص في صمت يوحي بأنه يعيد قراءة ما حدث في مخيلته آلاف

المرات، كيف لا وهو قاتل أبيه الذي كان بالأمس القريب يمسك بيده، ويرافقه إلى الدكان ليشتري له الحلوى، أو إلى محل الملابس لينتقي له ثياباً جديدةً، ويغدق عليه بقبل وابتسامات ملأى بالحب والحنان؟! وها هو يغطيه ليلاً في الشتاء البارد ويطبع على جبينه قبلة بعد أن نام مطمئناً، وراحت الصور تزدحم وتتلاطم وتتكثف، حتى راح يرفع يده ليمسح ما يسيل من عينيه دون إرادة، ثم تعالى نحيبه بعد أن انفجر باكياً، وهو يصرخ بصوت مكتوم أبي.. أبي... وأنَّى لأبيه أن يسمعه وهو الآن في حزنه مفجوعاً على ولده، وولده في بطن الحزن والوادي، بل لربما سمعه الأب وكاد ينهض ليخفف عنه وجعه، ولكن الجرح الذي تركه في صدره، والنزف الذي بدأ، ولن يتوقف وإن مات؛ يمنعانه من النهوض.

ألقى البندقية أرضاً، واستدار باتجاه صديقه وارتمى على صدره وراح ينتحب ويبكي، ويرتجف من الخوف مردداً، احمني، ساعدني، لقد قتلت أبي.. وسرت عدوى الحزن في روح صديقه وجسده، وراحا يبكيان معاً، وقد تعانقا بقوة، حتى سمعا صوت سيارة يهدر في جوف الوادي، ويقطع السكون الأسود المرعب، ثم راح ضوؤها يلمع وقد مزقته الأشجار بأوراقها وأغصانها، فتارةً يبين وطوراً يختفي. أخذا يجففان دموعهما، ويمسحان وجهيهما، ويلتقطان الأنفاس، ثم جلسا على صخرة إلى جانب الطريق، ينتظران اقترابها منهما.

راحت السيارة تملأ الفراغ بصوت محركها، وعجلاتها وهيكلها

الذي يدرك المصغي أنه تصدع لكثرة السير في الـدروب الوعرة والمليئة بالحجارة والحصى، وما أن بان لهما حجمها الكامل حتى وقف الصديق القاتل في وسط الطريق وراح يلوح بيده للسائق كي يتوقف، فأخذت السيارة تبطىء من سيرها حتى توقفت تماماً، وقفز من صندوقها شابان، وصوبا السلاح نحوهما وتعالى صوت يصرخ بنبرة ترعب السامع:

- «قف.. من أنت؟».

٢٥

وردَّ الصديق القاتل: «صديق، أتينا نلتحق بكم».

- اقتربا بهدوء.. وارفعا أيديكما فوق الرأس.

فنفذا ما طلبه المتحدث منهما، وظلا يتقدمان حتى وثب أحد كان يتوارى بمحاذاة السيارة، وبلمح البصر اختطف البندقية من يده، وصوبها نحوهما، ثم اقترب وهو يتحدث بلهجته الفلسطينية، وراح يفتشهما بتحسس جسديهما من الكتفين حتى أسفل القدم. ثم أمرهما بركوب صندوق سيارة الجيب روفر، وانطلقت السيارة بهما صوب المعسكر.



بعض الأحزان مخجل، وبصيص آلامها أبعد مما نتخيل؛ ما يسلب آلامها البريق وبالرغم من الواقع إلا أننا نعيش في مساحات خاصة داخل أذهاننا الشخصية. لذا نقف نحن – المبصرين – أمام المرآة، لنؤكد أنَّنا نحن من خلال ملامح وجوهنا، ترى فكيف يؤكدها البصير؟ قد ندافع نحن – الجبناء – بشراسة عن رغبتنا في الحياة، وذلك ليس عشقاً منا لما ننجز بل لأننا نتخطى الزمن يوماً بعد يوم هاربين من الموت، ومن لحظات تبعث فينا حنيناً لا يطاق، خصوصاً بعد أن تجلت عبثية الحياة وفوضوية التجربة البشرية، التي عقدتها تطورات التقدم التكنولوجي، فبتنا نسمع أنين همومنا وأحزاننا وضغوطاتنا اليومية، أكثر من سماعنا للموسيقى وأصوات الطبيعة التي تنكتم شيئا فشيئا، كان يكتب ويستمع إلى موسيقى الصباح، وفيروزياتها: «العمل الموسيقي يبقى ناقصاً، ما لم نسمع بعده مباشرة تصفيق الجمهور، فالتصفيق نوتة موسيقية يكتبها المستمعون حين يتوحدون خلف الإبداع، وهي أجمل نوتة في الأعمال الإبداعية كافة».

كان يجلس في مقهى دار الإصدار، في حي المروج بالرياض، حين راح يرصد ما تفرضه الحالة الوجدانية عليه، ساعة راح غالبية الذين كانوا في المقهى يخلونه مع اقتراب الوقت من منتصف الليل، وتخرج مع كل مرة يفتح فيها الباب خلل الدخان التي كانت تعج في فضاء المكان، لتحل محلها موجات الحر التي تفرض حضورها على أزقة المدينة وأحيائها وشوارعها، فتكاد تبدو الحياة فيها شبه مشلولة،

بعد أن عطل الحر الحياة بشكل واسع، ولأنه صار في عقر التجربة الإسلامية التي راح يتجول في أرجائها، ويعيش تفاصيلها اليومية بسلوكيات وأحاديث من حوله، وبتناقضات تخصف الاستقرار بين النفس البشرية، والإله الذي يسكن مخيلة وعقلية كل فرد عرفه أو لمحه أو التقاه بشكل عارض أو راقبه من بعد، ما عزز تساؤله: «وما جدوى أن يتعرف الإنسان إلى الله ويفهمه، وهو يجهل ذاته ولا يفهمها؟».

وانتابته حالة وجد حادة للحب.. فها هو في مدينة، ولأنه ولد ذكر بالصدفة ربما، أو بإرادة لا يملك تجاهها تغييراً، يعيش وسط مجتمع ذكوري، لا نساء فيه، وإن حضرت إحداهن، فهي تحضر غير مرئية تغلفها عباءة، لم يَعْنِهِ أن يبحث عن الأسباب خلف جعلها سوداء، إنها حالة جوع يجهل تحديد مبعثها، أهي حاجته إلى الجنس، أم إلى الحب، أم إلى آخر ليست ضرورة خلقه كشريك في الأرض مجرد فكرة؟ فأمسك برأسه بين كفيه، واستند بكوعيه إلى الطاولة، وأغمض عينيه، وراح يسترجع صور الفتيات اللاتي عرفهن منذ أبعد أيام الطفولة حتى آخر امرأة التقاها قبل مغادرته إلى الرياض، وهو يردد بحزن «إن أشد الأماكن وحشة تلك التي توقظ حبنا، ولا أحبة هناك».

٢٦

كن كثيرات، ولكن لسن جميعهن خليلات أو شريكات فراش، ولم يستطع أن يحدد إن كانت الفتيات الأشد حضوراً في مخيلته،

أولئك اللواتي شعر تجاههن بالحب، ولم يتمكن من إيجاد فرصة للبوح، أم أولئك اللائي أحبهن دون أن يشعر برغبة في إقامة علاقة جسدية معهن، أم هن نساء عرفهن في علاقات تشعبت خيوطها بين الحب والجنس والفكر واللهو والصداقة؟ حتى استقر به الشريط عند آخر لحظات لقائهما في محطة القطار في تازة المغربية.. كانت الساعة قرابة الثانية بعد الظهر حين نزلا إلى المحطة.. وقفت إلى جانبه في طابور قطع التذاكر، تطوقه بذراعيها من خصره وتلقي برأسها على كتفه، والناس من حولهما منشغلون بين مراقب لهما، ومتأفف من شدة الحر، وباحث عن بعض حاجاته داخل حقائبه، ومتلفت يميناً ويساراً بحثاً عن مرور الوقت الذي يطبق بثقله في لحظات الانتظار.. دنوا من شباك قطع التذاكر، لينقد الموظف ثمن التذكرة من تازا إلى فاس ثم الدار البيضاء ٢٦٠ درهماً مغربياً، واستلم التذكرة ووضعها في محفظته، ثم سألها عن الوقت المتبقي للرحلة فأجابته ساعة واحدة، وقد اختنقت بغصة البكاء.. شدها إليه من كتفها، وخطا بها إلى الجهة المقابلة لسكة القطار خارج المحطة، ثم افترشا الأرض، وأسند ظهره إلى الجدار، فيما تكورت هي بجذعها فوق صدره، وراحت تسأله عن تاريخ عودته إليها، وترجوه ألا يقل في اتصالاته وسؤالاته عنها، لأنها حتماً ستموت من الشوق إن تخلى عنها، فيما راح هو يسمعها صوتاً من داخله يقول:

وأجمل ما فيك؛ أنك أنثى
تعرف كيف تضيء خيالي
أنثى تجمع روحي ودمي
فأعود رجلاً يتألق
تحت تاج الشيب وأصهل
وأحمحم كحصان هائج
ثم أسقط تحت جموحي
حين أقفز دون فضاء
إني أمتلئ بالشكر
لامرأة مثلك تجعلني
صوفياً يهوى الأذكار
إني أحبك فابقي أنثى
إني أحبك يا عشتار!

٢٧

ثم راح يحدثها عما رآه في بابل خلال زيارته الأولى لها، وعن شغفه بالبحث عن السر الذي يكمن خلف العلاقة بين عينيها وتلك العيون البابلية في الصورة التي كانت تعلق إلى أحد الأعمدة في مدينة بابل الأثرية.. فأفاق على لقائه بالمهندسة الزراعية التي كانت تعمل في حدائق تلك المدينة، والتي تعرف إليها عن طريق الوقاحة، فقد سمع

من الزملاء أنها فتاة صعبة المراس، ومعقدة وهي غير متفرغة للعلاقات العاطفية، لأنها نذرت نفسها للبحث، والعمل على مشروعها!

لقد كان لقاؤهما الأول بحضور عدد كبير من الأصدقاء.. حين تقدم منها، ووقف أمامها، وسألها أن تنظر إلى عينيه، فرفعت رأسها، وعدلت نظارتيها الطبيتين أمام عينيها الخضراوين، فتطاير منهما لمعان خاطف جعله يشعر بالتيه، وقال لها بصوت فاجأ الجميع بوقاحته «أنا أشعر تجاهك بميل جامح، ولذا أقول: أحبك»!

عم المكان صمت ثقيل، فالكل ينتظر رد فعلها على ما ارتكب من حماقة، وراحت العيون تنتقل بين التفات إليها والتفات إليه، وهو مازال يحدق إلى عينيها دون أن يرف له جفن، فيما ثبتت هي عينيها في عينيه، وقد صدر عنهما نظرة أربكت الجميع في تفسيرها، ثم حنت رأسها، وراحت تنظر إلى أصابع كفيها المنعقدة فوق رجليها، ولم تقم بأي رد فعل على ما جرى، وعاد هو إلى مجلسه، وظل ينظر إليها، فلمحها تسترق النظر إليه من خلف إطار النظارتين الرقيقتين، من الأعلى..

ثم راح يستعيد استرخاءه، وأخذ يتأمل شعرها الأشقر المصفف في جديلة ثخينة فوق كتفيها وقد تدلى ما تبقى منها حول عنقها الفارع، على صدرها الأيمن، وقد ارتدت قميصاً أخضر أكمامه طويلة، برز من تحته نهدان كبيران، كاد بروزهما يجعل أزراره تنفلت عند افتراق نهديها، وتنورة بنية تصل إلى ما تحت الركبة، حيث تبدو ساقاها المكتنزتان، وقد التفت استدارة قدمها عند الكاحل لتمنحها مظهراً

مثيراً، جعلته يشتهي في تلك اللحظة ملامستها، والإحساس بها، إلى أن قطعت عليه زميلتها كل ما استحضره إلى مخيلته حين قامت غاضبة، وقد طلبت منها المغادرة احتجاجاً على ما جرى! وخطت أمامها باتجاه باب المغادرة، فلحق بهما إلى الخارج، واستند إلى العمود الذي يمسك ببوابة الحديقة، وهو يتأمل مؤخرتها التي تتكور خلفها تحت التنورة وتزيد من رغبته فيها كلما ابتعدت، والتي كانت تنط خلفها بطريقة، جعلته يصرخ مجدداً: «أحبك.. وأنت في حل مما أريد».

فتوقفت، والتفتت إليه، وعادت صوبه، ثم قالت له افتح كفك، ففتح يمينه، فأمسكت بالقلم، وكتبت رقم هاتف فيه، وقالت له: «هذا رقمي في العمل، كلمني» ثم تبسمت، واستدارت راحلة، فيما بقي هو في ذهول وشرود، لا يصدق ما حدث، وما جرى، وراح يشعر بالخدر يسري في جمجمته، وعجز عن النطق، وتحولت كل الوقاحة التي تبناها ساعتئذ، إلى شعور يجهل وصفه أو فهمه أو إدراك ماهيته، ولم يفق من حاله هذه، إلا على وجهها وهو ينظر إليه من خلف نافذة سيارة الأجرة، ويدها تلوح له مودعة!

٢٨

بعد انتهاء دوام أول أربعاء على لقائهما، نزل من الحافلة التي صعدها من باب المعظم في بغداد إلى مدينة بابل، وتوجه إلى أقرب هاتف عمومي في الشارع، ثم بحث عن الدراهم المعدنية في جيبه،

وأمسك بسماعة الهاتف، مسنداً كوعه إلى أعلى علبة الصندوق، وراح ينقر بالدرهم على حافة الهاتف فوق لوحة المفاتيح والأرقام، وهو يفكر في الكلمات التي عليه أن يهمسها في أذنها قبل أن يخبرها أنه في بابل، ثم طلب الرقم الذي كان قد نسخه عن كفه إلى دفتر، اعتاد أن يحمله معه أنى ذهب حرصاً منه على تدوين أية أفكار، تخطر له أو تأتيه أثناء تنقله، وظل يصغي إلى الرنين في الجهة المقابلة من المدينة في حي لا يعرفه، وفي مكان لا يعرف موقعه بالنسبة إلى المكان الذي يتصل منه، فشعر بيدها تمسك بالسماعة، وترفعها، ثم أتاه ذاك الصوت الذي يسمعه للمرة الأولى عبر الهاتف، وقد بدا تحت وقع الاسترخاء والانشغال في العمل، وعدم توقع المتصل، كأنه يحمل من ترنيمة الطفولة في فم أمه أعذب لحظاتها، فهمس بلا أي تردد:

- أحبك.. أحبك.. وراح يصل الكلمات بعضها ببعض أحبك أحبك أحبك أحبك، ولم يمنحها فرصة لتسأل من المتصل، ولا أين أنت، قال لها:

- أنا في بابل في محطة الباصات، تعالي لتأخذيني!

وانفجر صوتها بالفرح المحشود حباً، وقد قالت له:

- ابق في مكانك إلى جانب الهاتف وإياك أن تتحرك، أمهلني عشر دقائق فقط!

وأقفلت السماعة، وأخذت تجمع الملفات والأوراق التي بين يديها، وتضعها بعضها فوق بعض غير آبهة لاحتمال أن تفقد بعضاً منها، تنادي:

أبا شهاب، شغل السيارة وانتظرني أنا قادمة لتقلني، بسرعة تحرك..

- حاضر أنا جاهز!

هكذا رد سائق الدائرة أبو شهاب، ثم سمعت صوت المحرك ينطلق، فحملت حقيبتها اليدوية، وخرجت تجتاز المسافة بأشد خطواتها اتساعاً!

كان يستدير في وقوفه، متأملاً المكان، وملقياً النظر على البيوت التي تحيط بالموقف، باحثاً عن لوحة لأي فندق قريب من الموقف، ليقضي فيه ليلتي الخميس والجمعة، حين سمع صوت بوق يلح في الانطلاق، فالتفت جهة الصوت، فإذ بعربة نقل بيضاء، تتقدم نحوه، ويد تتطاول من نافذتها ملوحة، نظر إلى داخل العربة، فرآها تشتعل فرحاً، وأقدمت على فتح الباب قبل أن ينهي السائق توقف العربة، ونزلت بسرعة وجرت نحوه، تفتح يديها على اتساعهما، فما كان منه إلا أن قابلها بالجري حتى التقيا في عناق، لو رأته صديقتها المغتاظة من وقاحته، لقدرت أن عمر هذا الحب تاريخ وقرون!

٢٩

ظل أبو شهاب محتاراً في هوية هذا الشاب النحيل، بقميصه الأنيق، وبنطاله الأسود المخطط، وحذائه اللماع، وخواتم الذهب والفضة تبص في أصابع كفيه، كلما تحركت أنامله خلف ظهر المهندسة

الزراعية التي لم يألف عنها غير الجدية والوقار، فبالرغم من طيبة قلبها، إلا أنها كانت تبدي حزماً وثباتاً في ملامحها كلما أتى يقلّها من باب البيت إلى مكتب العمل في مدينة بابل الأثرية، الأمر الذي لم يسمح له بتوقع مثل هذا السلوك منها.

جرته من يده باتجاه العربة، وأصعدته قبلها إلى جانب السائق، وركبت هي إلى جانبه لتجلس إلى جانب الباب، وهي تعرفه بالعم «أبوشهاب» سائق الدائرة، وتشيد بأخلاقه وقيمه، ولطفه، ثم كادت تدخل في شرح عن تفاصيل حياته العائلية، لولا أن سألها أبو شهاب بلهجته العامية:

- غير نعرف منو هذا الحلو أول، وبعدين تكملي حتشيك؟!

وسألته بعفوية:

- صدق هو حلو أبو شهاب لو تجاملني؟؟
- حلو طبعاً حلو ويخبل بعد، لكن ما قلت لي من هو، ولا مؤاخذة أول مرة أشوفك تاخذين أحد بالأحضان، وأنا مو متعود عليتش، تسوين هالشكل؟!

فالتفتت إليه، وقالت: أخبره من أنت! فاعتدل في جلوسه، والتفت إلى أبي شهاب، وقال له:

- إنها حبيبتي اليوم، وشريكة عمري غداً.
- صدق تحشي، شقاعد تقول! كلمات صرختها بفرح، وظلت تردد أكاد لا أصدق.. أمعقول ما يجري؟!

وراح أبو شهاب يهدئ من روعها، وهو يقول:

- ألف مبروك، أقلّه نشوفك فرحانة، لا ومو عراقي بعد، ولبناني همين، يابيه منو قدك أنت، خوش مهندسة.

وراحت تزيل كل الحرج الذي في نفسها، وأمطرت أبا شهاب بوابل أسئلتها عن حبيبها، كيف يبدو، هل تعجبه أناقته، هل يراه جدياً أم لعاباً؟ فيما أبو شهاب يقتنص الفراغ بين أسئلتها، ليسأله إن كان يملك مكاناً ليبيت فيه، أو يعرف أحداً لينزل ضيفاً عنده، ولمّا عرف أنها زيارته الأولى إلى بابل، وأنه سينزل في فندق، أخذ يقسم إنه لن يقبل إلا بأن يكون ضيفه، ويقيم معه وسط عائلته! حتى حسمت هي الجدال، بطلبها من أبي شهاب أن يترك له سكنه في العمل، فقد كان ناطورا ليلياً، إلى جانب عمله كسائق في الدائرة، ووافق الأخير على مضض، بعد أن أبدى الحرج والخجل من كون هذا السلوك لا يليق به خصوصاً أنه في أول زيارة له إلى مدينته، ثم أوقف السيارة عند مدخل الدائرة القائم إلى جانب واحد من مداخل المدينة الآثارية، وترجل الجميع للدخول، لكنها طلبت من أبي شهاب أن يذهب إلى عائلته، وقد أخبرته أنها ستسهر معه الليلة في المدينة، وأنها لن تجعله ينام حتى تعرف عنه كل صغيرة، وكبيرة، قبل أن تجيب على طلبه بالارتباط بها!

٣٠

قادته إلى غرفة الناطور أبي شهاب، وعند الباب، أمسك بيدها، وجذبها إليه، وهمس: لحظة! فأجفلت متوجسة من فعله، وسألته: ما

بك؟ فيما بقي هو صامتاً يتأمل باب الغرفة الذي يحمل رسوماً وتصاميم بابلية، والتفت إلى الجدران الحجرية التي تحضن بين حناياها باباً خشبياً، ما جعله يستبعد صخريتها، ويحس بأن لها مظهراً مختلفاً عن مظاهر الصخر والحجر، لا بل ساده انطباع بأنها تعطف على الباب، وتشفق عليه، فسألها أتراك تشعرين بما أشعر تجاه هذه الجدران؟! فأجابته أنها كلما دخلت هذه المدينة صباحاً، تشعر أنها تملك شحنات من الحب والعاطفة والرغبة في الإحسان، وما أن تغادرها مساء حتى تعود هموم الحياة خارجاً ومشاكلها وتفاصيلها لتعج بها، وتثقل على صدرها! فهز رأسه، وراح يتلمس الجدران والباب بهدوء ولطف، وفي جسده تسري مشاعر لم يستطع أن يعرف مبعثها، ولا سببها، ولا مردها، لكنها مشاعر تحمله إلى هدوء أعمق، وصفاء أفسح، وتشعره بأن في رأسه فتحة يخرج منها الضغط، وفي صدره فتحة أخرى تدخل إليه شعوراً عجيباً بالراحة، وأنه يكاد يشعر برغبة في الصراخ حيوية، وبالرقص فرحاً، والتعبير بأقصى ما يمكنه عما يجول في روحه وكيانه.

كانت الغرفة من الداخل بسيطة بشكل يولد شعوراً يكمل انسياب المشاعر التي سكنته أثناء عبور بابها، فراش على سرير حجري، يطل على نافذة واسعة، تفصله عن السرير عتبة عريضة، نقشت فوقها رسوم يمكن أن يراها في جدران المدينة كافة، الضوء داخلها خافت، وعن يمين السرير طاولة حجرية القوائم، خشبية السطح، فوقها بعض منشورات عن تاريخ المدينة، وشرح عن أقسامها.

شدته إليها من جديد، وتكلمت بنبرة حنونة دافئة، تليق بعمق هذا المكان الوجداني:

– سنبيت الليلة هنا! والليل معك لا شك سيكون قصيراً جداً، لذا أجّل استكشافاتك التاريخية قليلاً، وعاملني كأنثى، فأنت الرجل الوحيد الذي هزني من قعر أعماقي! ثم اقتربت بفمها من فمه وقبلته، فاستفاقت فيه كل مشاعر الحب والذكورة، واختلطت بمشاعر التاريخ الذي هو في جوفه، وانبعثت منها رائحة العطر الذي لم يستطع أن يحدد إن كان عطراً بابلياً، أم باريسياً، أم هي نكهة أنوثتها وجسدها التي امتزجت بعشقه، وتنبه إلى أنها تقبله بعينين مفتوحتين، ما أثار شغفه ورغبته، وكل عاطفته، فمن النادر أن يقيم الإنسان علاقة مع شريك يبقي على عينيه مفتوحتين، وراح يطوف بوجهها غير آبه للمكان الذي تقع عليه قبله، كأنه طفل يقبل أمه، فيلتهم شفتيها مع خصل الشعر التي تعلق بفمه، ويقبل أنفها وعينيها وخديها وجبينها وشعرها، وهي تبدي ارتفاعاً ملحوظاً لرغباتها، وراحت تصدر عن جسدها حركات تطالبه بالمزيد، وعن صوتها تأوهات، تكاد تشعره أن الأرواح التي تسكن هذه المدينة، تتسلل عبر الجدران وتحت الأرض وفوق الأسطح، لتشاهد احتفالية الحب هذه! وهو يهمس: أعشقك، أحبك، وتفيض روحه بعبارات لم يكن يعاني استحضارها، ما جعلها تشعر بالنار تحمحم، وتستعر، وأحست بصدرها يتهدج، وبنهديها يرتجفان، عندما ضغط على ظهرها بكفيه، ليلامس نهداها صدره.

٣١

ثم توقف فجأة، وقال لها انتظري، ونزل راكعاً، حتى أمسك بقدمها العارية، وراح يقبل ما حول الكاحل، وهو يردد هذا أول ما فتنني بك يوم التقيتك هناك.

غادرا الغرفة بناء على طلبه للقيام بجولة ليلية في المدينة الأثرية، غير آبه للمدينة الآهلة بالسكان، وطلب منها أن تحدثه عن كل ما تعرفه عن هذه المساحة التي تتوسط جبهة الحاضر رغم أنها في غور أعماق التاريخ؛ فبالأمس كان طفلاً على مقاعد الدراسة الابتدائية، وبالكاد سمع من مدرس التاريخ بضع عبارات عن البابليين، وها هو اليوم في ديارهم، يتجول برفقة فتاة من سلالتهم وقد دخلت حياته دفعة واحدة، وعزلته بحضورها عن كل ما يحيط بأسوار هذه المدينة من الخارج. أخذت بيده وراحت تسير به عبر الممرات الترابية، وتشير ببنانها الرقيق الذي تصوبه نحو تيجان الجدران فوق المباني العريقة، والأسود والألوان الزرقاء التي تكسو بعضها، وتقول:

- سأخبرك بما أحب، وليس بما تريد أن تعرفه، كان سكان هذه الحضارة يحبون المشاكسة، وكانوا يبلغون التفسير لما يغمض عليهم عن طريق الأسئلة، ولكنهم كانوا بشراً من ذوي الأرواح الرقيقة، يميلون إلى الرومانسية في عباداتهم، وفنونهم وعلاقاتهم العاطفية، وأبرز ما كان يعبر عنهم قيمة الحب والزواج في حضارتهم، الزواج المقدس الذي كان

يقام لإلهي الخصب، عشتار وتموز. فقد كانت إلهة الحب والشبق أساس الخصب ولا حياة بدون هذه الإلهة التي تنبت في جوفها بذرة الحياة من ماء الإله تموز، وراحت تقرأ له مقاطع من مزامير تلك الاحتفالية:

أنا المعدن الحنون

أنا من يدفع الرجل إلى المرأة،

ويدفع المرأة إلى الرجل.

من دوني يضطجع الرجل وحيداً في غرفته،

وتنام المرأة على جنبها وحيدة.

وكان الإله تموز يذهب إلى فراش مليكته مرفوع الرأس فرحاً، يستهدف بذلك حث الناس على التناسل، والعيش بفرح، وكان يأمر الناس ببناء مخدع جديد كل سنة لمليكته، فيطهرونه بالآسل والأرز، ويفرشونه بشراشف تثير فيه الرغبة والشبق، ثم يرفع صوته منادياً الملكة بأنه قادم إليها لحرث فرجها المبلل بتموزه المليء بماء الحياة فخراً...

ثم قالت وقد عادت إلى الواقع: وكم أحب أن أكون أنا عشتارك، وأنت تموزي، وأطفالنا الذين سننجبهم يرثون مني نسب الإلهة البابلية.. وتنبهت لتسأله:

- مهلاً مهلاً، أولست من بلاد أجدادها الفينيقيين؟؟ أوليس فيهم إله للخصب؟ أتراك تعرف اسمه، أو تعرف شيئاً عنه؟ حدثني عنه هيا.. أعتقد أن اسمه كان أدونيس؟! تخيل

أن ننجب أنا وأنت أطفالاً يرثون نسب عشتار البابلية من جهة الأم، ونسب أدونيس الفينيقي من جهة الأب.. آه كم سيكونون سعداء بهذا اللقاء التاريخي لهاتين الحضارتين عبر الدم المشترك الذي سيسري في عروقهم.

٣٢

تقدم النادل منه وهزه من كتفه، أفاق ليسمعه يطلب منه المغادرة؛ بعد أن حان وقت الإقفال. فجمع أوراقه وما يحمل معه، وترك ثمن ما احتساه فوق الفاتورة، وخرج يسلك طريق العودة إلى بيته، وهو مازال يتجول في ممرات بابل الأثرية.. يشعر بكفها الطرية الرقيقة الناعمة الصغيرة داخل يده، فيمسك بها بقوة وحب؛ خشية أن يعود إلى عالم الذكريات القاتل، فيما لو أفاق كلياً من هذا الحلم.

كرؤوس سكاكين تطل من خلف قماش أسود، كان المشهد الليلي الذي راحت تطل منه أضواء السيارات، تمزق بنورها صدر الظلام.. وهو يقطع الشوارع في ساعة متأخرة من الليل؛ وبرودة الهواء تزيد طريقه وحشة وغربة، وقد تاه بين الزمن التاريخي الذي كان فيه، وبين الحالة التي راحت تحمله بعيداً عن المكان والزمان اللذين يسكنان الشوارع، حتى أيقظه من شروده توقف سيارة جيب بيضاء إلى جانبه، ما جعله يتراجع إلى الخلف لا شعورياً، مرتاباً من هذا التوقف المفاجئ، في ليل وغربة لم يألفهما كما ينبغي منذ أن أتى إلى الرياض،

أنزل زجاج نافذة الباب الأمامي إلى جانب السائق إلى مستوى النصف، ثم أشعل مصباح الإنارة داخل السيارة، فظهر رجل سبعيني العمر، يلف رأسه بشماغ، عقد أطرافه حول العقال الأسود الذي يطوق أعلى رأسه، يرتدي ثوباً أسود، يخفي بقية تفاصيل جسده.. مد العجوز إليه بالهاتف المحمول، وقال: – خذ تكلم! لم يفهم، ولم يعِ ما يجري، لكنه وبلا أي اعتراض أو استفسار، أمسك بالهاتف، وراح يحاول إيقاف كم الأسئلة الهائل الذي يرد إلى رأسه، دون أن يرحم حاله التي هو فيها من ارتباك وخوف، واسترخاء في ذكريات ساحرة، ليضعه في واقع أقل ما يقال عنه إنه كابوس، ثم راح يحاول أن يخمن في رأسه هوية المتصل، وهوية العجوز الذي يقبع خلف المقود ويتصرف كما لو أنه عميل سري، ويقمع في الوقت نفسه التساؤلات التي راحت تصفع جمجمته كحبات البرد الصغيرة، التي تهطل فجأة دون سابق تمهيد أو إنذار، وبالرغم من أنها لا تؤذي، إلا أنها تُوَلِّد شعوراً بالحاجة إلى الهروب! وأحس للحظة أنه لربما كان أسير موقف من مواقف الكاميرا الخفية، أو أنه ضحية لخلية ما تتابعه منذ مدة دون أن يتنبه لذلك؛ إلا أنه رفع الهاتف المحمول إلى أذنه، بعد أن استبدل قلبه تلك الدقات الناعمة التي كان يخفق بها أثناء تجواله في أزقة الذكريات بضربات قوية، يكاد لا يتحمل خفقاتها لشدة الخوف:

– ألو..

خرجت منه مرتبكة وقد جف فمه، وتقلصت عضلات لسانه،

ما يكفي ليشعر المتصل في الجهة الثانية، أنه قد لا يتمكن من إتمام المكالمة. وأتى الرد بصوت أنثوي زاد تيهه تيهاً، وما استطاع – لشدة الحيرة التي كان يعيشها – أن يصغي كما ينبغي، لكنه أدرك من خلال عبارات الرجاء والتوسل، التي راحت تتردد على مسمعه، أن المرأة بحاجة شديدة إلى المساعدة.. فاستعاد رباطة جأشه وتماسكه، وخفف من توتره، ثم طلب منها وهو يبرر لنفسه وليس لها، أن تعيد ما قالته لأنه لا يفهم لهجتها.

٣٣

وعادت لتتحدث بصوت أوضح، وقالت:

- سائق السيارة التي أمامك هو أبي، وهو مريض يعاني الزهايمر، ولقد غادر المنزل منذ ساعات الصباح دون أن يخبرنا، وها هو الآن يجول في الشوارع عاجزاً عن معرفة الطريق التي تعيده إلى المنزل، وأنا ابنته الوحيدة، فهل يمكنك أن تساعده، وتحضره إلى البيت؟!

وراحت تلح في رجاءاتها، وكادت تغص بالبكاء، فتنفس هو الصعداء، وأخذ يقوم بتصرفات تعيد له توازنه، ثم أمسك القلم وراح يدون عنوان المنزل في مذكرته اليدوية، ثم أغلق الهاتف وصعد إلى جانب العجوز السائق، وأمسك بيده، وقال بحزم:

- عليك أن تنفذ ما أقول، وإلا ضعنا نحن الاثنين معاً، فأنا غريب عن مدينتكم، والساعة متأخرة، ولا مجال للاستهتار.

هز الرجل رأسه بالقبول، ثم طلب منه أن يسلك اتجاه اليمين، والرجل يروي له قصصاً، وأخباراً، لم يحفظ منها شيئاً، لأنه كان يصب كل تركيزه على قراءة اللوحات وأرقام الشوارع، ليستدل على الحي الذي يقيم فيه هذا العجوز الخرف.

واصل توجيهه للسائق، وكان يعاود الاتصال بالفتاة ليبلغها عن مسارهما أولاً بأول، ويسألها عن الجهة التي ينبغي أن يسلكاها، فتطمئن، وتجدد الإحداثيات التي تشعره بأنه يدنو من العنوان شيئاً فشيئاً، فيلتفت يميناً ويساراً بحثاً عن تفاصيل ذكرتها، حتى سمع العجوز يهتف فرحاً كما لو أنه طفل وجد منزله بعد تيه يوم كامل:

هذا بيتنا... آه آه هذا بيتنا!

وتعالى ضحكه، وانفرجت أسارير وجهه، إلا أنه وبالرغم من تعاطفه مع رد فعل العجوز لم يستطع الوثوق بكلامه، فألغى الاتصال الذي كان قد طلبه عبر الهاتف، وأمره بالتوقف، ثم مدَّ يده وأطفأ محرك السيارة، وسحب المفتاح وحمله بيده، وترجل منها، وخطا صوب الباب، ليضع إصبعه على مفتاح الجرس الذي كان يشع بنور خافت، ثم ضغط عليه، ووقف ينتظر، وظن أن الجرس لا يعمل، فهو لم يسمع صوت رنينه، إلا أن شاشة الهاتف أشعت لتظهر رقم ابنته، تعاود الاتصال، فرد على مكالمتها، وسمعها تسأل إن كان هو الذي قرع الجرس، وأجابها بنعم، ثم أغلق الهاتف، وتراجع إلى الخلف خطوتين، وأدار ظهره إلى الباب الذي تعالى صريره بعد أن انفتح، يرافقه

شكرها، وتعبيرها عن الامتنان لصنيعه، وراحت تنادي أباها للدخول، لكنه أخبرها أنه يحمل المفتاح، بعد أن سحبه من السيارة خوفاً من أن يغادر أبوها المكان، ويخرب عليه كل ما عمل لإيصاله، وعادت تردد جزاك الله خيراً، وجعلك من السعداء. ثم انفجرا ضاحكين؛ عندما سمعا أباها يقول بحزم وجدية:

- ادخلي المنزل، سأعيد الرجل إلى بيته، ثم أرجع.. أقفلي الباب جيداً.

٣٤

وأخذ يلح عليه بالصعود إلى السيارة. لكنه أعطى المفتاح لابنته، وانطلق مخلفاً الرجل العجوز وراءه، وقد عجز عن الكلام لشدة نوبة الضحك التي اجتاحته، وصوت جداله مع ابنته ينأى عنه خطوة بعد خطوة، يلح عليها بضرورة إيصال الرجل إلى بيته، ورد صنيعه الجميل.

***

كلما أتم نهار أحداثه وتفاصيله، وكلما علقت أشعة الشمس تجوالها في المكان إلى صباح آخر، وكلما هرب واقع من فوق أكتاف الكثيرين تاركاً لأخيلة الوهم والحلم مكانها في سواد العتمة وصمتها! جلس غريب أطوار محدقاً إلى لمعان الأحلام التي تبص هنا وهناك، يصغي إلى حديث نفسه عن سبل وطرقات تؤدي به إليها.. في الطفولة كان يرى المسافة أقصر بينه وبينها ، واليوم يشعر أنه ومع كل دورة لهذا

الكوكب الأعمى تنأى عنه مسير عام ، فهل وهم الطفولة يدني البعيد ، أم إن رجاحة العقل تقصي الداني؟

يمتاز الخائفون بأنهم أنأى عن المخاطر، ويحيا المخاطرون متعة الجراح التي تسقطهم كلما أثخنتهم دون الوصول! عندما تنهار مباني الطين أمامنا ندرك لذة الوهم، وقبح المحسوس، فأي شيء يجعلنا لا نأسف على خسرانه أكثر من الأمل؟ وأي حياة تلك التي تسير بنا من غامض إلى مجهول، وفي جعبة كل رحالة منا ألف ممكن ومستحيل؟

يعشق الخائفون قلة هزائمهم ووفـرة الحذر اللامجدي، ويستلذون غباوتهم لأنهم ما خبروا قطّ عنف التجارب وعمق بشاعتها، ويمقت المتهور جبنه الذي يناديه مردداً أن توقف، وكف عن المضي قدماً صوب المبهم، ولأنه يستشعر في دمه طعم الطعنات ويدمنه، تراه يلقي بجسده على أسنة السكاكين والحراب، لأن متعة اختراقها لقلبه لا يستسيغها إلا من أدمن التمزق والموت مع انكسار كل حلم . فكم قتل المستجبن في قلبه لذة النهوض، ولكم عافت نفس العاشق وروحه هدأة السكون ، فأكمل دربه بغير رجلين وذراعين لأنه يدرك أن الأماني تبقى أماني، وسر روعتها أنها أماني ليس إلا.

كانت السيارة تسير في طريق وعرة، تقفز بهم كلما عبرت حجراً أو مطباً ترابياً، وتبطئ السير ثم تنطلق بقوة كلما نزلت في حفرة، واللذان يجلسان في المقدمة، يتحدثان غير آبهين فقد اعتادا العبور بالسيارة في هذه الطريق، وألفا قفزاتها، أو أنهما لربما أحصيا عدد القفزات التي

تقفزها في كل مرة، وعدد المطبات والحفر، ولربما كانا قد حفظاها عن ظهر قلب.. بينما تشبث الصديقان بحافة الصندوق، وراح يسأل كل منهما الآخر إن كان يحس بألم في معدته، ثم علا صوت الرجل الذي كان يجلس إلى جانب السائق، ليطلب من الذي إلى جانبهما في الصندوق، أن يضع في رأس كل منهما كيساً، ليحجب عنهما رؤية الطريق إلى موقع المعسكر، إلى حين التيقّن من هويتهما .

٣٥

حين سمعا حواراً يدور بين حارس المدخل وذاك الذي إلى جانب السائق، عرف كلاهما أن السيارة تقف في باب المعسكر، وعادت لتسير من جديد، قاطعة عشرات الأمتار، صعوداً وهبوطاً، ثم توقفت، ونزل الجميع منها، وأحس بيد تمسك ساعده وتطلب إليه النزول، فهمس لصديقه القاتل، أن عليهما النزول، ثم راحا يسيران مهتديين باليد التي أمسكت ساعده.

بعد عدة خطوات ارتطمت رجله بعتبة، فعرف أنه يدخل غرفة؛ أحس داخلها باختلاف مناخها عن الخارج؛ فالرطوبة ورائحة الدخان التي تسللت إلى أنفه كتمت أنفاسه، فهمس باسم صديقه سائلاً عنه، فأتاه صوته مطمئناً بأنه وراءه مباشرة.

أجلس كل منهما فوق كرسي، وبدأ التحقيق معهما بالسؤال عن اسميهما، وعن موطنهما، وتفاصيل دقيقة في حياتهما، وسرى الود

والطمأنينة في جسده عندما سمع صوتاً يسأله عن أسماء بعض أقاربه، وذويه.. واستمر الوقت يمضي في التحقيق مع صديقه، الذي بدأ يروي تفاصيل قتله لوالده، ويجهش بالبكاء بين الحين والآخر، فيأتيه صوت المحقق الصارخ بالكف عن البكاء، فالذي يقتل أباه لا يحق له أبداً استجداء عطف الناس، والبحث عن الرحمة في قلوبهم، ثم سمع صوت تعشيق البنادق، وعلا هرج ومرج، فقد أعطى المحقق أمراً لبعض المسلحين بالاستعداد لإطلاق النار على صديقه القاتل، فانهار هو، وما عاد يعرف ماذا يقول، وصار يتوسل ويترجى ويستحلفهم تارة بفلسطين وأخرى بالأقصى، ومرة بدماء الشهداء، ألا يفعلوا هذا، لكن صديقه القاتل طلب منه الهدوء، ثم توجه إلى المحقق وقد اختفى صوته جراء الخوف والبكاء، وقال:

- هيا أريحوني، وأطلقوا النار، وليكن لحاقي بأبي نهاية عذابي، فما هي إلا ساعات مرت على جريمتي، وقد عانيت فيها الآلام ما لا يطاق، أفتظنون أني أحب العيش، مع ما سأعانيه لسنوات..

وأخذ يرجوهم أن يفعلوا، ويلح في طلبه، لوقف معاناته، وهو يصرخ لا تردوا عليه، لا تصغوا إليه، اعفوا عنه، وسامحوه.. ثم دارت ملحمة من البكاء والعويل والصراخ، ومال على صديقه القاتل إلى جانبه واحتضنه، وقد أعطاه صدره فيما أدار ظهره إلى البنادق التي لم يرياها بسبب الأكياس التي في رأسيهما، وظلَّا ينحبان ويبكيان، حتى

أحسا بالهدوء يعم المكان.. فصمتا قليلاً من الوقت، ثم تجرأ، وسأل إن كان هناك أحد ما في المكان ، وراح يلح في النداء، والسؤال، ولما لم يلق جواباً تجرأ على رفع الكيس عن عينيه، فتبين له أنهما في مكان مظلم، فأزاله نهائياً، وأزال الكيس عن رأس صديقه، وراح يمد ذراعيه في الظلام بحثاً عن أحد.. ولكنه لم يجد، ثم عاد ليحدد في مخيلته مكان الكرسي، وظل يتحسس الأرض بقدمه حتى أحس به إلى جانب ساقه، فانحنى يلامسه، ثم جلس عليه.. وهو يقول لصاحبه:

- أظنهم خرجوا وتركونا هنا حتى الصباح.

وأخذ يطلب منه الكف عن البكاء والنحيب، ويطمئنه موضحاً له أنه لو كان في نيتهم قتلهما فعلاً، لما تركوهما، ولكنه مجرد امتحان لمعرفة مدى قدرتنا على التحمل.

٣٦

قضيا الليلة في ظلام، وقلق، وصمت، وتعب من التقلب بين الأرض والكرسي، وقد حاول كل منهما جاهداً أن يجد طريقة تمكنه من الشعور بالاسترخاء والنوم، ولكن دون جدوى، وظلا على حالهما هذه، حتى تسللت أشعة الشمس من شق صغير فوق حاجب الباب، فأدركا أنه شروق الصباح، وراحا يستكشفان المكان مع ازدياد النور الذي راح يطارد الظلمات، ويخرجها ، فتبين لهما أن المسافة بين الباب، ومكان جلوسهما أبعد بكثير مما ظنا، ثم بدأت تتكشف ملامح المكان

جيداً، ليظهر أنهما في كهف تحت الأرض، وأنه كهف مستحدث؛ فآثار المعاول، وطرقات المطارق ما زالت مرتسمة على الجدران الصخرية، المنمشة ببعض عروق التراب هنا وهناك، وفي السقف، قد اسود بعض البقع،ومال لونها إلى التعفن جراء إشعال النار شتاء في داخله، ودخان السجائر، والرطوبة، ثم لفت انتباههما وجود حفر في الجدران، أحدثت لتكون على شكل خزائن جدارية، بقيت فيها علب دخان فارغة، وملابس غير مرتبة، وبقايا بطاريات للمصابيح اليدوية، وأشياء ما من ضرورة لوجودها لولا بلادة المقاتلين الذين يقطنون هذا المعسكر بشكل عام، وهذا الكهف بشكل خاص.

خطا منفرداً باتجاه النور بحثا عن الباب، فوجد أن أرض الكهف تنخفض عن مستوى أرض الممر بما يقارب المتر، ولتخفيف حدة الارتفاع، وضعت عدة أحجار كعتبة، تتحرك إذا ما داسها الصاعد، فتحدث صوتاً ينبه الحارس في الخارج، بأن من بداخل الكهف، في الطريق إليه.. صعدها ليكتشف أن ممراً ضيقاً متعرجاً عليه ولوجه للوصول إلى الخارج، أخذ يسير صاعداً، تتنازعه عوامل الحذر والرغبة في بلوغ ما بعد هذا النفق، حتى سقط وتعالى صوت قرقعة الطناجر المعدنية؛ بعد أن وضع قدمه في جوف إحداها، فانزلقت به ليحاول بعدها أن يتثبت بأي شيء تقع عليه يده؛ التي ما وقعت إلا على مزيد من الطناجر، ما أحدث ضجة صاخبة، تلاها صراخ الحارس في الخارج، ناهراً ومحذراً إياهما من الخروج؛لأن الأوامر تقضي ببقائهما في المغارة ما لم يأت أمر قائد المعسكر بإخراجهما!

عاد إلى مكانه وجلس على الكرسي إلى جانب صاحبه، الذي بدا غير آبه لما حوله، وقد سدت شهيته عن الحياة، وبدا كئيباً شاحباً، لا يرغب في التكلم أو في إبداء أي رد فعل، ليشكل منفذاً يمكّنه من الدخول معه في حوار.. فالتزم مراقبته والصمت، وغدا الوقت ثقيلاً، وراحت نفسه تحدث بالصراخ تارة، وبالخروج والضرب بكلام الحارس عرض الحائط، وأخرى بالتريث، والانتظار، حتى سمع صوت قرقعة الطناجر من بعيد، وكان إيقاعه يوحي بأن أحداً يرفعها من الممر، إذ بدا له أنها توضع بعضها فوق بعض، ثم تبين له أن أكثر من اثنين يتشاركان في مهمة شق الطريق إليهما، حتى سُدّ المدخل بجسد؛ بان حجمه، ولم تبن ملامحه، بسبب النور الذي احتجب خلفه ليعكس ظله، وقد طلب منهما أن يتبعاه إلى الخارج فنهضا، وصعدا الممر الضيق الذي تكشف عنه السقف بعد عدة أمتار، وأخذت حواف الجدران على جانبيه تقل ارتفاعاً حتى لامست الأرض عند نهايتها.

٣٧

يتوسط المعسكر غابة حور، تلمع أوراقها تحت أشعة الشمس، كأنها ليرات ذهب فوق جبين عروس بدوية، قد طرزت جبينها وخديها بالوشم الأخضر، وبين جذوع تلك الأشجار تنساب المياه في ساقية تلوّى جريانها، فبدت كأنها بعض أفعى اختفى منها الذيل والرأس، وتراقص تلألؤ الماء يشعر الناظر بالرهبة من جلد هذه الأفعى

الضخمة. وفي جوف أشجار الحور، أقامت عصافير الدوري احتفالية صاخبة، يرافق شقشقتها، حفيف الأوراق وخرير المياه، وساهم في تواؤم هذه الأصوات، موقع المعسكر بين ثلاثة جبال، يوفر التصاقها بعضها ببعض واد مخروطي الشكل، تغطي أشجار السنديان قسماً كبيراً من سفوحه، فيما بدت في الجهة الجنوبية منها حفرة ضخمة، أحدثتها جرافات وجدت في هذا المقلع خير مصدر للحجر الممتاز، وعلم فيما بعد أن المقلع كان تحت إمرة قائد المعسكر الذي يتقاضى بدوره مبالغ مالية عن كل شاحنة تدخل إليه وتخرج منه كل يوم.

توزعت على جنبات المعسكر ملاعب التدريبات؛ فهناك ساحة الرمل المستديرة، وعلى مسافة منها أنفاق الأسلاك الشائكة، تليها باحة الحواجز المخصصة للقفز والوثب والتسلق والسقوط، ثم مكان المباني الذي يحاكي تجربة قتال الشوارع.

اقتادهما الحارس، إلى غرفة القائد، طرق الباب، ثم أدخلهما بعد أن بقي دقائق داخلها، طلب منهما أن يؤديا التحية، ففعلا، وأمرهما بالبقاء واقفين، ثم طلب إليهما أن يقدما أية أوراق ثبوتية يملكانها.. بعدها طمأن قائد المعسكر صديقه إلى أنه سيحميه، وسيدبر عملية نقله إلى معسكر آخر بعد أن ينال التدريب الكافي.

ثم توجه إليه بالسؤال إن كان سيلتحق بهم؛ كما صديقه القاتل، أم إنه سيغادر عائداً، ثم عقب على كلامه، ينصحه بالعودة إلى دراسته وبيته، فصديقه بات بلا مستقبل، وهو مطارد، فيما ينتظره كل مستقبل

وأمل، مرحباً به إن أراد البقاء ، ليحصل على التدريبات التي سيحصل عليها صديقه خلال ما يقارب الستة أسابيع، ليعود بعدها إلى حياته، على أن يكون في صفوفهم بين الناس، وعيناً من عيونهم.

ذات يوم طلب منه صديقه أن يرافقه إلى مجرى الساقية عند أشجار الحور؛ جلسا هناك، وراح ذاك القاتل يخبره عن حبه لعفيفة، ابنة الجيران وابنة الخامسة عشرة ، الخاسر الوحيد في مصيبته التي جنى بها عليها، بعد أن وعدها بالزواج ، ولكنه الآن واثق بأن هذا الوعد بات غير ذي قيمة، وأن عفيفة لن تحتمل العيش مع قاتل لأبيه، وهي بالتأكيد لن تطمئن لتصرفاته بعد كل ما جرى.

ثم أخذ يخبره عن أمنيته الوحيدة، وهي أن يغفو وينام ولو ساعة، بعد أن صار يعاني أرقاً قاتلاً، فكلما أغمض عينيه يحاول النوم، كشفت مخيلته عن صور أبيه القتيل، وعن كل ذكريات الطفولة مع ذلك الأب الضحية، وأنَّى له التخلص من هذا العقاب القاسي، الذي راحت نفسه والطبيعة والسماء تضيق عليه فيه أيامه، وما عاد البكاء يخفف عن قلبه، ولا عاد الكلام ينفس، أو يوسع عليه حصار الألم القاتل!

٣٨

ثم تناول من جيب قميصه العسكري ورقة كتبها بخط ولغة ضعيفين، تلتف على مبلغ من المال، سلمه إياها، وطلب منه أن يوصلها إلى عفيفة، وأن يجعل الأمر سراً بينهما ، ثم راح يحدثه عن ذكريات الطفولة وعن أبيه وإخوته وأول لقاء بينه وبين عفيفة، حتى أجهش

بالنحيب والبكاء، ونهض مبتعداً عن صديقه، ملوحاً له بيده طالباً منه أن يعود إلى حياته الطبيعية بين أهله، وأن يحفظ وصيته الوحيدة (عفيفة).

غادر المعسكر، وعاد إلى بيته، وقد احتاج إلى عدة أيام لاستعادة رضا أبيه الذي كان قد غضب منه لمغادرة الدار، وزجّ نفسه في موقف لا مصلحة له فيه، لكنه قلب الأب، يبقى بستان الفرح والمحبة، لذا احتفظ أبوه بملامح وجهه القاسية، الغاضبة، ليهلل في قلبه شكراً لعودته، لذا لم يحتج الأمر إلا إلى أيام حتى راح يسأله عن تفاصيل ما جرى، وألِفَ ذكر صديق ابنه القاتل.. أما أمه فقد كانت في الحب نفسه الذي تركها فيه حين غادر، قبل أسابيع، لا بل تجلى شوقها وتعلقها به أكثر، كلما كانت تقدم له كل ما تاقت نفسها إلى تقديمه له في غيابه، وتخبره كيف خبأته، وادخرته إلى حين عودته، وتمسح دموعها كلما تذكرت خشيتها من عدم عودته سالماً!

قصد منزل عفيفة، فلمحها في باب البيت الذي يقع على ناصية طريق فرعية، وكان بيتاً متواضعاً، تآكلت حافة بابه الخشبي من الأسفل جراء المطر الذي يصفعه كل شتاء، تقف بلباسها الأسود، وقد ربطت فوق شعرها شالاً، جعلت عقدة ربطته في أعلى الرأس من الأمام.

سلم عليها، وسألها إن كانت في البيت بمفردها، فطمأنته إلى أن الجميع في أعمالهم، وأن أمها قد ذهبت لزيارة جدتها، فناولها الرسالة وما فيها من نقود، ونقل إليها تحياته، وتمنياته، وحاول أن يطمئنها بأن حبيبها سيكون بخير، لكن قلبها المحب أصدق من كل ما ألفه من

قصص وروايات عن حاله، فبكت وهي تقرأ الرسالة، ورجته بحرقة، واستحلفته أن يأخذها لزيارته متى أراد الذهاب للقائه.

راح صديقه القاتل يحفر عميقاً في نفسه يوماً بعد يوم، بحثاً عن قعرها عله ينظفه من الذكريات السارة والأليمة، فيعمق الحفر لوعاته أكثر فأكثر، وكأن عينيه قد خزنتا إلى الأبد صورة وجه أبيه الوحيدة في آخر لحظاته، ميتاً مبتسماً لولده، الذي وبالرغم من قسوة ما ارتكبه، يأبى أن يفارقه بغير قلب الأب!

وراحت الأشهر تتوالى، ليستلم مع كل نهاية شهر قصاصة ورق ومبلغاً من المال، وملاحظات تحدد حصة عفيفة، وحصة قبر أبيه الذي خصص مبلغاً لتزيينه، وتلبيسه بالحجر وزرع الأشجار حوله، عله يكفر بذلك عن آلامه.. واستمر الحال سنتين، حتى وصله خبر انتحاره، بعد أن تردت حاله، ليدخل كآبة حادة لامس فيها انهيارات نفسية وعصبية، كادت تصدر – لولا علم الجميع بأسبابها – الأمر بقتله وتصفيته منذ زمن بعيد لما صار يشكل من خطر على رفاقه.

٣٩

لم يخرج خلف جنازة صديقه القاتل سوى عفيفة، وبعض رفاقه من المعسكر، وأصدقاء الطفولة، قاموا بدفن الجثة، وغادروا، لتبقى عفيفة جالسة، تبكي عند قبره حتى ابتلعت الظلمة النور والأمل بعودته، مخلفة في المكان والقلوب حزناً كغول، ليس من اليسير التعامل مع

جشعه في القادم من الأيام، بقيت عفيفة تزور قبره لتزرع عنده الزهور وتروي ترابه بماء تحمله في إبريق بلاستيكي؛ وقد جلبته من عين القرية التي كان لهما فيها ذكريات جميلة التصق حروفاً محفورة على جدرانها الحجرية حتى هدمها بعد أن جف ماؤها الذي أخذ يشح سنة بعد سنة..

بانتحاره لم يبق سبب قتله لأبيه سراً، وشاعت قصة حقد أمه على أبيه بعد أن كشفت أمر عشقه لسواها، فبدأت تحرض ولدها إلى أن شفى حقدها، وحقق رغبتها في قتله لأبيه.. لتعيش بعدهما نتائج وآلام ما فعلت في مشفى الأمراض العقلية، لا أحد يسأل عنها أو يرأف لحالها، كأي حاقد يجزى حقده حقداً.

٤٠

الطيبة هي الممر الذي يتنفس منه خبث الأخيار - وفقاً لرأي مولر-، والتطهر أمام الله بدعة أوجدها أصحاب الفضيلة لفرار من الحاجة إلى تطهرهم أمام البشر، والذي يوحي لنفسه بالطيبة ليتخلص من عبء الألم، إن هو إلَّا ظالم ينفس طيبته حيث يريد ويحجبها حيث يريد، ما ينقصها نقاؤها ويحولها إلى طيبة ظالمة، فأن تكون طيباً مع شخص دون سواه، كأن تمنح حبك لمن لا تعرفه، وتحرمه لمن حولك بسبب انتكاسات أصابت علاقاتك بهم؟

حين فتح الكاميرا على سكايبي ليتحدث إلى نينا، بعد أن بقي وقتا مملاً في تنصيب البرنامج، وفتح حساباً خاصاً به لهذا الغرض ،

لأنها طالبته القيام بذلك، فهي أعلم منه بهذه البرامج، بقي صامتاً أمام مشهد حضورها في الكاميرا كما لو كانت أمامه.. كانت المرة الأولى التي يحصل فيها على مثل هذا التأثير، والتطور في استخدام شبكات التواصل، وراحت تتحدث إليه مرة بالفرنسية، وأخرى بلهجتها المغربية، وتمرر بين الحين والآخر كلمات وعبارات أمازيغية، وهو يصغي ويتشوق للإصغاء أكثر، لدرجة أنه صار يقضي ساعات في محادثتها على هذا البرنامج الذي راح يتلقى عليه طلبات جديدة بالعشرات، وراحت كاميرا الجهاز الخاص به، تتنقل من حساب إلى آخر ملبية طلباً في رؤيته من فتاة إيطالية، وأخرى بولندية، وغيرهما من الفلبيين، والباكستان، والهند.. تفاوتت دوافع هذه اللقاءات، فمنها ما كانت مالية بحتة، بحيث راحت أم لأربعة أطفال في الفيليبين، تعيش وسط كوخ رغم كل حقارته، ما منعها من الاشتراك في الشبكة العنكبوتية، والبحث عن صداقات فيه، وأخذت تعرض عليه أطفالها الأربعة عراة، تشكو له جوعهم، وحرمانهم، بعد أن غادر أبوهم المنزل منذ سنوات، ولم يعد.. لتعتاش بعده على مساعدات الدولة التي لا تكفيها، ثم تعرت أمام الكاميرا، رغم ما يفصل بينهما من مسافات وأثير، ليقطع البث بعد أن تجاوزت حاجاتها الحدود، وفتاة أخرى كانت دوافعها البحث عن الابتزاز، وغيرها تدعي حاجتها إلى شريك في عملية تبييض للأموال.. ليبيت ليلته، يتقلب في فراشه، محاولاً فهم هذا العالم المعقد، العالم الذي أطلق عليه مصطلح افتراضي، فكيف يمكن لأناس أن يشعروا

بالقدرة على بناء علاقة وثقة، وصفقات مع ما يشبه فيلماً مصوراً في الجهة الثانية من العالم، ويغوص في عمق التحليلات، والتفسيرات والتأويلات، ثم يخرج من كل ترحالاته الفكرية بأن لا جدوى مما يفعل، ويعود ليخبر نينا بكل هذه المغامرات، محاولاً معها فهم ما يبحث عن فهمه، إلى أن يشعر معها بالتشتت والضياع نتيجة خوضهما في حوارات ونقاشات متشعبة، لا تنتهي، ما يجعله ينام أمام الكاميرا، ويبقى الجهاز أمامه يعمل إلى حين نفاد بطاريته من الطاقة المغذية.

في هذا العالم يغدو الجميع أنبياء، وأصفياء، وملائكة، كل هذا لأنهم في الحقيقة بحاجة إلى تحديث صورتهم أمام أنفسهم بعد كل التهدمات التي أصابتهم وأكلتهم، وتآكلت بهم في عالم الواقع، والموروث، لذا يحلقون، ويتسامون لدرجة يحس الواحد منهم أنه بات مطهراً، منقحاً ومنصفاً لذاته بعد كل الآلام التي حملها لسنوات عاجزاً عن البوح بها لسواه.

٤١

نعم لقد وفر عالم التواصل الحديث للجميع حلولاً ولو وهمية لحاجاتهم، وظروفهم، ومشاكلهم، وملأ كثيراً من النقص الحاد الذي عجز الواقع عن ملئه لقرون. ولكم دارت نقاشات حول مشكلة الإدمان على هذه المواقع، وكان يقف هو في وجه هذه الاتهامات مدافعاً عنها بقوة وشراسة، مبرراً للجميع دفاعه عما يقتنع به؛ فمن وجهة نظره كم

من حامل للسر منا، يعجز عن البوح بسره في الواقع، وكم من شخصية واقعية باح لها مثقلون بالأسرار، وخذلتهم في إشاعة ما اطلعت عليه، وتسببت له مثل هذه المواقف بردود أفعال راوحت بين الصدمة والكآبة والانتحار. وكم من باحث عن الحب، ولخلل في ذاته أو شكله أو مفهومه عنه، فشل في الواقع مرات ومرات، إلَّا أنه نجح بذلك عبر هذا العالم الافتراضي، وكوّن علاقات؛ وإن كان على يقين بأنها لن تتجاوز عالم الأنترنيت، إلا أنه شعر فيها وبها بالإشباع والاكتفاء، وملء النقص، وكم من شاعر عجز عن نشر قصيدة في جريدة محلية بسبب عقدة في تفكير شخص ما في تلك الجريدة أدى إلى حرمانه عرض نتاجه على القراء، إلا أنه غدا شاعراً في فيسبوك، وتويتر، وكم من رسام لم تمكنه ظروفه من إقامة معرض في محلته المعدومة لرسومه، لكنه بلغ العالمية عبر هذه المواقع، إن علاقة الفكر التي أمنتها هذه الشبكة لكل سكان الأرض جعلت الناس أشد قرباً بعضهم من بعض، ولو على حساب كثير من السائد الذي كان في نسيج العلاقات الاجتماعية في الواقع، ولهذا لاقت إقبالاً أشد بكثير من المحاسبات والمحاكمات التي لن تؤثر في مسيرتها، وشكلت حالة علاجية شخصية تتعامل مع كل منا بخصوصيته التي وهبتها له السماء والطبيعة! فالتغيير الذي أحدثته، والتطور الذي حققته، جعلا العادات والموروثات تشكل الخطر الأبرز على تلك القفزة من التقدم في عالم التواصل، إذ بقيت هنا وهناك

أصوات ناشزة تستمد من موروثاتها وعاداتها السلبية، مواد تغذيتها لهذه الصفحات والمشاركات، لتشبع رغبتها ولتسد نقصها فقط في الوجود والبقاء اللذين هما من أولى أبجديات السعي للنجاح والخلود.

وراحت المواقع تفرخ مواقع، والبرامج تلد أشباهها بالمئات، وازدحمت روابط البحث، وانتشرت ظاهرة التنافس والمنافسات، ونشأت خلالها وفيها صراعات أشد حدية من صراعات البشر.. ما دفع الخبرات الحياتية الشخصية في عالم الواقع إلى العودة لتلعب دور المصوب والموجه، لكل ما يحدث في هذه الشبكات.

كلما ازداد عدد مرات التواصل مع الآخرين، دفع هذا الازدياد بالمتواصل إلى تحديد حاجاته ومواطن شعوره بالنقص بشكل أفضل، لذا تمكن كل منهما من التشبع بفضاء الآخر الفكري، وتمكنت خلايا عيونهما ومشابكهما العصبية من رصد أدق التفاصيل رغم كل الفواصل، من صوت وصورة وملامح، وتفاصيل في أبعاد الشريك كافة ، ما جعل كلاً منهما يعي كيفية التعامل بلطف مع الآخر، دون الحاجة إلى تكلف، أو ادعاء، أو تورية، فكانا يلتقيان على عفوية من حياتهما، كل في مكانه، سواء في الفراش، أو العمل أو المطبخ، أو أو، غير آبهين لما يلبسان أو يرتديان، أو للصورة المثلى لوجهيهما.. كل هذه التفاصيل كانت تحدّث كلاً منهما بضرورة لقائه الآخر، لذا راحا يعملان على تهيئة الفرصة والظروف للقاء في عالم الواقع.

٤٢

توقف القطار في محطة فاس، ليترجل منه، فسار يجر خلفه حقيبته التي راح يحدث نفسه حين أطبق بقبضة يده على مسكتها المعدنية: «كلما أحمل حقيبتي وأخرج من وطني، أدخل في ذاتي، وألتصق بجوهري أكثر، ربما لأن من أحب سكنوا هناك بعد خروجي، لذا لست أعاني بُعدهم، ولا نأيهم، وأجمل ما يحدث لي بعيداً عنهم، أن وجهي لا يكون مرآة تعكسهم فيه، بل يصبح وجهي وجهي أنا، يعكسني أنا.. نعم أنا أعيش حياتي وغربتي بأعمق ما يمكنني!».

كان يسير بهدوء وتيه فرضتهما عليه تفاصيل الرحلة التي استغرقت تسع ساعات طيراناً، وست ساعات في القطار؛ الذي التقى فيه بشراً لهم من المآسي ما كاد يدفعه للقفز منه والفرار في تلك الجغرافيا التي رغم سحرها وعفويتها، لم تمنعه من أن يعكف على مراقبة الركاب، والإصغاء إلى حواراتهم، يدفعه إلى ذلك الفضول، لحن اللهجة التي يسمعها لأول مرة.. استوقفه شاب تونسي، وأخذ يقص عليه حكايته، وكيف تقطعت به السبل، فلا مال لديه، ولا معين، وطلب منه مبلغ عشرين درهماً مغربياً فقط ثمن وجبة طعام، فناوله المبلغ، وهو يلجم نفسه عن التدخل بين أم راحت تصفع طفلها الذي لم يتجاوز السنتين، لأنه يبكي من الجوع، فاشترى له من البائع المتجول قطعة شوكولا، تناولها الطفل الذي كانت عيناه تفرطان حبيبات دموعه، لأنه شعر بالضيق والاختناق، كانت العربات تغص بالركاب الذين تبدو عليهم

حالات البؤس والفقر المدقع، من خلال ملابسهم الرثة التي لا تناسب الطقس، ومن ملامح وجوههم الشاحبة بسبب سوء التغذية، وبالرغم من كل ذلك لم تستطع وجوههم أن تخفي عنه ابتساماتهم الودودة، التي جعلته يتمنى لو أن بإمكانه أن يقدم لكل واحد منهم ما يخفف عنه ضيقه.

لوحت له بيدها من خلف زجاج المحطة، ورد عليها بإشارة من يده، وهو يجري مقارنة بين ملامحها في الواقع، وتلك التي خزنها في ذاكرته من صورها في العالم الافتراضي. كانت ترتدي تنورة رمادية قصيرة، وقميصاً كحلي اللون، وعنق الجزمة السوداء يغطي ساقيها إلى ما دون الركبة، ورأسها الشامخ فوق عنقها المائل إلى الطول، يشرئب من بين أكتاف الناس بشعرها الصبياني القصة، لتتابع تقدمه منها، وما أن لمحته على بعد خطوات حتى قفزت بيديها إلى عنقه، تطوقه بهما بقوة وحنان، وشفتاها تنشران ياسمين قبلاتها فوق كل مساحات وجهه؛ غير آبهة لمن توقف ليتفرج على عاشقة راحت تتصرف كالطفلة المجنونة، تصرخ وتنادي «حبيبي» وتقبله من رأسه وعنقه وفمه ووجهه، ويديه وكتفيه، ثم تدبك بقدميها تعبيراً عن سعادتها، وكأنها لم تصدق أنهما قد اجتمعا بعد كل تلك اللقاءات والحوارات الأثيرية، ثم ابتعدت عنه خطوات وراحت تتأمله وتتفحصه من قدميه حتى أعلى رأسه، وهي تقول، أنت في الواقع أجمل منك في السكايبي.. فتعالى ضحك الناس الذين كانوا يتفرجون على هذا اللقاء المحموم بالمشاعر والغرابة،

والعفوية، فالتفتت إليهم ضاحكة، وقالت: لقد انتهى العرض يمكنكم التصفيق، ثم الانصراف!

فتعالت ضحكاتهم، وتعليقاتهم، ثم راحوا ينفضون من حولهما، متمنين لهما السعادة.

٤٣

نحاول في كل يومياتنا أن نكون متوازنين، نبحث عما يمكّننا من عدم السقوط، ليس لأن السير فوق حبال الحاجة أمر فيه متعة، بل لأننا نشأنا على الخوف من السقوط، ولكم صُوِّرَ لنا أنَّ السقوط نهاية، جعل منه صليباً نحمله فوق أكتافنا طوال رحلتنا في هذا الكوكب، ولكن يبقى السؤال: ماذا سيحدث لو أني قررت أن أقبل عجزي عن التوازن؟ لا بل ماذا لو أني عشقت السقوط، وقررت القفز من علٍ بإرادتي، ليس لأسقط فقط، بل لأعيش تجربة التحليق أثناء السقوط في مساحة خالية من الخوف، وأهيم على وجهي من انحدار آخر ما يمكنني من أن أكتشف لذة فقدان التوازن؟

لطالما حاولنا تحقيق التوازن من خارج دائرته الحقيقية، فرحنا نقتني ونشتري، ونخزن العشرات والمئات من عكازات نتوهم أننا في امتلاكها سنبلغ توازننا: هواتف، كهربائيات، سيارات، منازل، علاقات باهتة، وصداقات يمكنك تصنيفها في مرتبة الزيف والتبجح حولت منازلنا إلى ما يشبه ورشات لمعدات تكنولوجية وكهربائية، ألقينا عليها

بكل اتكالياتنا، لتقوم بالمهام عنا، فمنبه يوقظنا، وصفحة ملاحظات تذكرنا بما ينبغي لنا إنجازه، أو تذكُره، وكتاب ألكتروني في فنون الطبخ، وأيقونات في صفحات الفيس بوك تذكرنا بأعياد ميلاد أناس لا نعرفهم، ونعرفهم، وحقول تقوم بتحديد الخيارات في حال قررنا أن نتقدم بهدية ألكترونية.. كل هذا لنتجنب نتائج عدم التوازن، متناسين أن أعمق ما في الإنسان عجزه عن التوازن، فهو خاسر دائم، ومحاول دائم، ومغامر ومقامر، ومتخاذل، ومحبط، ومتفائل ومتشائم، وجاهل ومدرك وكثير من التناقضات الدائمة، التي لولاها لما تجلت عظمته في عبور ممرات هذه الحياة منذ الصرخة الأولى لأول طفل حرّك قلب هذا الكون ببكائه الأول دهشةً أو خوفاً، أو حذراً، أو عجزاً في تعبيره عن الفرح، أو أو.. ولكم تمايل وترنح ثم سقط فاقداً توازنه مع خطواته الأولى، دون أن يثنيه ذلك عن محبة ذاته، ولم يدفعه إلى فقد احترامه لها.

إن رحلة البحث عن الرضا والتوازن، ما هي إلّا قيد صُمّم ليقنعنا بقدرية الفشل، والشعور بالإحباط، فنفقد بذلك الأمان والاستقرار، والسكون، ونجنح إلى السير في حقل ألغام من القلق والتوتر والعنف النفسي الذي يستنزف فينا كل شغفنا بالحياة.

أن أتقبل ذاتي كإنسان غير قابل للتوازن، هنا تكمن القيمة في فهم من أكون، أن أحيا رغباتي بغير توازن، أن أقف أمام الجمال مهتزاً، وأرتجف فاقداً توازني، هذا غاية في التصاقي بجوهري، أن أفقد توازني

فأعصف غضباً أمام مشهد يحملني على فقد الثقة بي وبكل من حولي، هذا يعني أني أصغي إلى ذاتي كما ينبغي، أن أمارس الجنس بجنوح، وتطرف في المتعة، وأبدو خلال لحظاته غريب الأطوار، عجيباً، غير معقول، ولم يكن ليتوقع مني مثل هذه السلوكيات، فهذا يعني أني أفهم أن العبور من ذاتي إلى شريكي ليس مجرد رحلة تسلك طريقها المعبدة بأمان، بل هي لحظات أكون فيها أشبه بلاعب سيرك لا يعرف بغير حدسه متى يقذف بجسده في الهواء، ومتى يمد ذراعيه ليلتقط الحبال التي ستنقله إلى حركة جديدة، فيما يظل الآخرون كالمتفرج الذي لا يملك إلّا حبس الأنفاس وتنفس الصعداء، ثم الدهشة والتصفيق، ويبقى الرابط بينهما تلك المساحة التي حدثت فيها كل أحداث هذا العرض.

٤٤

نعم إن فقدان التوازن هو ملمح من ملامح الجنون، لكنه ذلك الجنون الذي يحقق تميزي، وسماتي، وهويتي، وشخصيتي التي لا أعتقد أن أحداً منا يمكنه احتمال فكرة العيش كما لو أنه نسخة عن آخر، ومهما بلغ العقل والشغف الإنساني من درجات التكيف والتبلد، إلّا أنه سيبقى رافضاً فكرة النسخة، وسيظل محركه الأبرز تعمده فقد التوازن، والاهتزاز، ثم السقوط، ثم التحلي بالشجاعة للقيام بسقوط جديد.

وتعالى التصفيق وهتافات الإعجاب بهذه المقدمة التي أوجز بها

تعريفاً لذاته، من مكانه وسط أصدقاء جدد يتحلقون حول طاولة داخل حانة صغيرة في شارع أطلس وسط فاس، دعتهم لتقدمه إليهم، فشربوا النبيذ الأحمر، ولما بلغ منهم أثره ما بلغ، انتقلوا من أحاديث التعارف والمجاملة إلى الخوض في حوارات ونقاشات في أمور مختلفة.. حتى لمحوا خارج الزجاج المظلل، الذي يعزل الحانة عن الشارع، يسمح لمن فيها برؤية المارة،ليحجبها عنهم، لمحوا رجلاً، يسير مترنحاً من شدة السكر، ثم استند إلى عمود الإنارة، ليسقط بعد أن فقد توازنه ، ولتفاوتت آراؤهم فيه بين ماقت، ومدين، وساخر، إلى أن قرر أن يوظف هذا المشهد بطريقة تجعلهم يعيدون النظر في كل ثقافتهم ومخزونها، فقد تبين له أنهم مجرد نمطيين، يهتمون بكم من عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها، كلائحة جرد، يراد بعرضها تورية العيوب التي تشغل الفراغات الداخلية الزائفة فيهم.

تعلقت عيناها بملامحه أثناء عرضه رأيه في فقدان التوازن، وراحت تمتلئ بالشهوة والشغف والتعلق به، إلى أن قطع أحد الأصدقاء عليها خلوتها وغوصها عميقاً في مشاعره وقال:

- كيف تتخيلين أنه سيفقد توازنه في أحضانك، وهذه ليلتك الأولى معه؟!

فأحست كما لو أنها تلقت صفعة عنيفة على خدها ، لكنها تمالكت نفسها وأجابت بسخرية:

- يمكنك أن تقضي الليلة الأولى معه إن كان الأمر يعنيك إلى هذا الحد!

فضجت الحانة بالضحك والتصفيق، والتعليقات التي عادة ما تصدر عمن أدخله النبيذ في جو من الاسترخاء والمرح، وعلق صديق آخر بالفرنسية، وقد كان محامياً:

- بالحق لقد أنصفتك، وأنت ملك ضيفنا لهذه الليلة، وما عليك إلا أن تصور لنا بالفيديو ما سيحدث عندما تفقد توازنك تحته..

٤٥

وعاد الهرج والمرج والضحك، إلا أنه قاطعهم، بلطف، ونظر إليها، وشدها من عنقها نحوه، وثبت بصره في عينيها، وقال:

- لقد عبرت كل هذه المسافات، لأفقد توازني بين ذراعي أنثاي فقط.

فأحست بشهوات كل النساء تسكنها، واحمر وجهها تعبيراً عن رغبتها في التحرك الآن إلى الفندق، وسحبت الدخان من سيجارتها، ونفثته في وجهه، وقالت:

- أنا التي تتوق لأن تفقده بين ذراعيك، فقد فتحت لي شهيتي على ذلك بحديثك، وكل رجائي ألا تكون متعباً من السفر، فلا مجال للنوم هذه الليلة.

وأتت تعليقات الأصدقاء، بأن كل الإشارات تنبه إلى ضرورة فض هذا اللقاء، وليذهب كل إلى بيته، فنهض البعض مودعاً سائلاً

عن موعد التلاقي في الغد، فيما بقي الصديق المحامي يجادل الضيف حول تسديد الفاتورة، حتى تمكن من إقناعه بأن اللقاء الثاني سيكون على نفقته.

أحست حين غادرا الحانة بعد منتصف الليل، بلسعة البرد بعد أن انخفضت درجة الحرارة، فتأبطت ذراعه، واندست في حضنه، وراحت تحدثه عن شتاء فاس وقسوته، وكيف يقبل الناس فيها على احتساء النبيذ بسبب البرد، ولم يمض كثير من الوقت حتى وقفا أمام مكتب الاستقبال يطلبان مفتاح الشقة ٤، كان الفندق بكل تصاميمه الداخلية والخارجية، يحمل روحاً تراثية؛ فبوابته الزرقاء، وبلاط الأرض الأبيض المزخرف بنقط سوداء، والدرج التقليدي، بحمايته المعدنية المطرزة بالنحاس، والحيطان المغطاة بورق الجدران، والتي تحمل لوحات بورتريت لأشخاص تقدم بهم السن، وثقت ريشة الرسام نظراتهم العميقة، وابتساماتهم الباهتة، وأحزانهم المكثفة، بعضهم يعتمر القبعة التراثية، وبعضهم الآخر يرتدي الزي الفولكلوري، وآخرون الملابس الأمازيغية.

عبرا عدة غرف وشقق يكتمان ضحكهما، كلما سمعا أصواتاً تأتي من داخلها، وقد بلغ بها الانفعال حد التخلي عن أي حذر، فأخذت تستعجله وتحثه على الإسراع، وتردد هيا بنا ننخرط في هذه السمفونية الشبقية، وقد وعدتني بأن تفقد توازنك بين ذراعي، وأنا في قمة الحماسة لأعيش ذلك.

أقفلا باب الشقة من الداخل، وراحت هي تخلع ما عليها من ملابس، وتشتم البرد وتسبه وتقول: «سأشعل جسدي ليغدو جحيماً يسيل عرقه فوق شفتيك أشهى من ذاك النبيذ الذي احتسيناه» ، حتى غدت عارية كلياً، ولحق بها ، ثم دلفا في الفراش، وفحيح رغباتها، وصهيل جسدها يطغى على كل تلك الأصوات التي سمعاها في الخارج، وراح الجسدان يتحدان حركة وتفاصيل، ويتناغمان فعلا ورد فعل، يلتويان كأفعوانين فوق سرير معدني راح يصرّ معهما، كما لو أنه شريك في تلك العلاقة التي استمرت قرابة الأربع ساعات متواصلة، حققا خلالها النشوة عدة مرات، بين متع الجسد، والحب، والحوارات، حتى أفاقت على صليب يتدلى من عنقه، فاعتدلت في جلوسها، وسألته بهدوء لم يخفِ تفاجؤها إن كان على الديانة المسيحية، وراحت تبرر أنها لا تهتم بأمور الديانات وطقوسها، إلا أن الفضول وحده هو الذي يدفعها لتسأل عن سبب تدلي هذا الصليب من عنقه، ثم انحنت تقبله من صدره، وتداعب حلمتيه، وتعضهما.. فيما ارتحلت فيه الذكريات، إلى أكثر من عشرين عاماً إلى الخلف، وهو يحدثها عن قصة هذا الصليب.

٤٦

بعد أن رجعا من جولتهما داخل مدينة بابل، وبعد أن صارحها بأن رجليه قد تخدرتا من كثرة المشي، وجدا أمام الباب أطباقاً، مغطاة، وإلى جانبها شراب اللبن العراقي الشعبي المعروف بـ(كانون) فهتفت

معبرة عن دهشتها بصنيع العم أبي شهاب، وخمنت أنه بالتأكيد جلب لهما (الدولما) تلك الأكلة الشهيرة في العراق، التي تحتاج إلى مجهود كبير من سيدات المنازل لإعدادها، وطهوها، فتحت الباب، وتناول هو الأطباق ليدخلها، إلا أنها ثنته عن ذلك، لرغبتها في تناول الطعام خارج الغرفة، وتحت ضوء القمر الذي بدا له وهي تشير إليه، قمراً بابلياً باتساع دائرته، ودكنة البؤر المعتمة فيه.

قضيا معاً ليلة، أقل ما يقال فيها إنها أشبه باحتفاليات آلهة الخصب عند البابليين، خلعا ثيابهما فوق مساحة من العشب التي تشكل بساطاً أخضر عن يمين الغرفة، محاطة بسور من قطع الخشب المتلاصقة بعضها إلى جانب بعض، وراحا يتدحرجان فوق العشب الناعم الذي كان يفعل بنكزات حشائشه فعل المنشطات الجنسية، كلما لامس منطقة مكشوفة، أو مخفية من جسديهما، وراحت مياه جسديهما تسيل مخصبة بانسيابها روحيهما، وعاطفتيهما، والأعشاب، والقمر والنجوم، وملائكة الليل وشياطينه التي تخيّلها، تتوقف عن مطاردة بعضها بعضاً، لتشاهد هذه الطقوس المتصلة بتاريخ الحجر، والمعمار الذي خلفه سكان هذه المدينة، حتى غفوا في مكانهما، ولم يستفيقا إلّا مع اقتراب إشراقة الصباح.. نهض من مكانه، ليتأمل جسدها العاري، وقد استقر الصليب بين نهديها اللذين أحس أنهما مليئان بشموخ كل التاريخ الذي خلفه نبوخذ نصر لسليلته التي تغفو بأبهة الملكات، وهيبة الآلهة.

حملها فوق ذراعيه، ونقلها إلى السرير، ثم عاد وأخذ الملابس، وتمدد إلى جانبها، وقد علق عينيه على صليب رقيق متقن الصنعة؛ معلق إلى خيط لم يعرف مما صنع، لكنه بديع بحبكته التي تعكس مهارة الأصابع التي جدلته.

فتحت عينيها على عينيه اللتين تتأملانها، فتبسمت له، وطوقته بذراعيها، وهي تهمس تموزي، سيدي، مليكي، حبيبي، وشدته إلى صدرها بعاطفة، جعلته يستحضر كل عناقاته لأمه منذ أن كان رضيعاً، حتى آخر عناق لها قبل المغادرة، وأخذ يتنفس بعمق رائحة جسدها الذي تفوح منه رائحة الأنوثة بعد أن أمضيا ليلة على سليقتيهما تحت ضوء القمر، ثم اعتدلت في الجلوس، وأبقت على رأسه فوق فرجها، وراحت تشرح له دون أن يطلب، قصة الصليب، الذي ورثته عن أمها التي ماتت وهي في الرابعة عشرة من عمرها، وقد كانت آشورية مسيحية، تزوجت بأبيها في محكمة مدنية، كانت الدولة قد منحتها صلاحيات عقد القران لأي راغبين في الزواج بصرف النظر عن ديانتيهما وأسرتيهما، وقد لبست هذا الصليب بناء على طلب أبيها، ليذكره بأمها كلما لمحه في صدرها، ثم أخبرته أن العقد الذي يطوق عنقها، هو صناعة يدوية بابلية يتقنها بعض الحرفيين كإرث عائلي تناقلوه عبر آلاف السنين، وما زالوا يحافظون على هذه الحرفة، ويعتاشون منها.

٤٧

في المساء سبقته إلى منزل العائلة، لتعدّ كل ما يلزم، وللتيقّن من حضور أبيها الذي لا علم له حتى اللحظة بأن ابنته قد عرفت الحب أخيراً، وقد وجد الفرح طريقه ليشع من قلبها وروحها بعد أن دخلت كآبة قاسية لازمتها منذ وفاة والدتها المفاجئة، التي لم يكن أحد في الأسرة ليتوقعها، فقد كان الوقت ظهراً، وكان يوم عطلة رسمية، والجميع في المنزل، وقد تحلقوا حول مائدة الطعام يتناولون فطورهم المتأخر، كعادتهم أيام العطل؛ قامت الأم التي كانت مليئة بالحياة والحيوية، وأعدت ذلك الفطور بكل تفاصيله التي أقر الجميع بأنه ليس كالفطورات التي سبقت بلذته ونكهته، وتنوعه وإتقانه، والأب يشكرها، ويعبر لها عن استمتاعه الشديد، فإذا بها قد عقدت حاجبيها قليلاً، فسألها عن سبب تبدل حالها، وأخبرته بأنه مجرد شعور عارض بالغثيان، ثم رفعت بعض الأطباق، واستدارت لتذهب بها إلى المطبخ، لكن سقطة مدوية سمعت، زاد من قوة الصوت تحطم الأطباق الزجاجية التي سقطت من يديها بعيداً عنها بعد أن فتحت ذراعيها في الهواء.. وهب الجميع من أماكنهم صارخين، متحدثين إليها، وقد رفع الأب رأسها، ووضعه فوق ذراعه، ليكتشف أن لعاباً أزبد عند حافة فمها، وقد فارقت الحياة!

حضر الأطباء مع سيارة الإسعاف، ولكن بعد فوات الأوان، ولم تمنحها الجلطة الدماغية وقتاً كافياً لتنبيه أحد، أو لتبدي أبسط ردود

الأفعال. وكان موتها بوابة لدخول ابنته في سلسلة طويلة ومتواصلة من الانهيارات العصبية، والتوتر.. لذا منحها كل ما اعتقد أنه قد يخفف عنها عذاباتها، من سفريات، ورحلات، وهدايا، وحرية، ووقت، وتحييد عن كل منغصات الحياة، حتى تمكنت من إتمام دراستها الجامعية؛ دون أن يلحظ عليها أية ميول لبناء علاقات مع الجنس الآخر.

دخلت البيت على غير عادتها، وراحت تنادي بصوت ما اعتاد المنزل ارتفاعه، تسأل عن أبيها، الذي نزل درجاً، يربط الدور الثاني بالأرضي، وقد ارتاب في ما هي عليه من فرح، وكان بملابس النوم، فتقدمت منه وطوقته بعناق أشعل فيه ذكرياته كلها، فكأنه يعانق أمها، وكأنه يشم عطر أمها، كيف لا؟ وهي التي ورثت عنها أدق ملامح الشبه في الشكل والسلوك.

طلبت منه استبدال ملابسه، لأنه سيستقبل بعد دقائق ضيفاً مهماً، ثم أخبرته بسبب حضور هذا الضيف، وراحت تتحدث عنه بشهية لم يعتدها منها أثناء حواراتهما السابقة معاً، التي كانت مختصرة بكلمتين فقط: نعم، ولا. إلا أنها الآن تتحدث بلباقة، وعاطفة وانفعال.. وراحت تدفع أباها من ظهره، أثناء صعوده الدرج، وتقول: هيا، هيا أسرع.. ليردد هو عبارة: حاضر، حاضر.

٤٨

التقى أباها، وأخبره كل صغيرة وكبيرة عن ماضيه وحاضره،

وحاول طمأنته إلى مستقبل ابنته معه، لكن الأب حسم الموقف بالتعبير أن طمأنينته الوحيدة بخصوص ابنته تأتي من قبولهما الزواج والسكن معه في بيته، والحفاظ على عملها قريباً من سكنها.. فصمت قليلاً، وأطرق يفكر، ثم التفت إليها، وقد غمزها مستفسراً عن رأيها، فهزت له رأسها بالقبول، ليبتسم بدوره، ثم مد يده ليصافح الأب، وهو يقول:

- لكما ما تريدان، ولكن إن لم يعجبكما وجودي بينكما وفي منزلكما، لن أمكنكما من طردي خارج المنزل!

وتعالى ضحكها وضحك الأب، ومد يده خلف كتفه وشده إلى صدره، وقال:

- كنت أبحث عن ابن، وها أنت هو، ثم تنهد، وأكمل حديثه: أوتعرف كم انتظرت قدومك لتأتي بها كما فعلت اليوم؟! أنا شاكر لك ما فعلته بابنتي، لقد أعدتها إلى الحياة.

في المساء ركب الحافلة وعاد إلى بغداد، فقد كان على موعد مع امتحان في صباح اليوم التالي، وهو في سنته الأخيرة، وبات بينه وبين التخرج مجرد أسابيع. انزوى داخل نفسه في مقعده، وراح يحاول أن يتخيل تفاصيل الحياة التي تنتظره، ورحلة بحثه عن عمل، إذ يستحيل أن يبقى بلا عمل، فيما تقوم هي بالإنفاق على المنزل.

توقفت الحافلة في بغداد، ونزل منها، ثم توجه إلى أقرب هاتف عمومي، وطلب رقمها، ليسمعها تسأله إن كان قد نظر داخل الكيس الذي حملته إياه، فنفى، وطالبته أن يفعل على الفور أثناء المكالمة، فإذ

بها قد وضعت في داخله علبة، فتحها، فوجد داخلها الصليب الذي كانت تلبسه، وساد صمت، إذ أجهش كل منهما بالبكاء، وقد عجزا عن التعبير، حتى سمعها ترجوه ألا يتأخر بالعودة إليها، فهي لم تعد تحتمل عالماً فارغاً من حضوره إلى جانبها ومعها وفي داخلها. ثم سألته إن كان سيلبسه؟ فأجابها بأنه قد فعل توّاً، وعاهدها على ألا يخلعه من عنقه حتى ينفصل رأسه عن جسده، وصمت لتنساب من عينيه دمعة رقيقة، جعلتها تفتح فمها مندهشة، أيعقل أن يكون في حضنها ويبكي لأجل امرأة أخرى؟! ثم صرح لها أن هذا الصليب لن يغادر عنقه مهما كلفه ذلك من آلام وضغوط ومشاكل، خصوصاً وأن صاحبته التي أهدته إليه قد رحلت عن هذا الكوكب مليئة بالفرح، والأمل، والحب والحياة.

كانت في طريق عودتها من صالون مصفف الشعر إلى منزلها، مساء الزفاف، عندما سقط صاروخ، أتى من الجهة الإيرانية لينزل على سيارتها، ويحيلها شظايا تناثرت في الفضاء كما كان متوقعاً لحبات الأرز أن تتناثر فوق الرؤوس في تلك الليلة، واستبدلت الزغاريد بالعويل والصراخ، وحمل ما جمع من جثتها ، ليوضع فوق منصة الفرح، وجلس هو إلى جانبها، في جنون وتيه ودوخان، لا يعلم ماذا يفعل، ليستبدل الفرح بمأتم، ولتضيع ملامح الفرح تحت ملامح الحزن في أجساد بكامل أناقتها التي تليق بليلة زفاف.

٤٩

ثم أجهش بالبكاء، وخبأ وجهه تحت الغطاء، وظل ينتحب وقتاً طويلاً، وكانت المرة الأولى التي يبكي فيها بهذا الشكل منذ أن رحلت.

كانا يجلسان في الدور الثاني من المقهى الذي يتوسط حديقة البلدية وسط المدينة، والساعة تشير إلى الخامسة بعد الظهر، عندما أعادت فتح موضوع الصليب المعلق إلى صدره، ما دفعه إلى توضيح موقفه من هذا الأمر بشكل واضح:

- اسمعي ، الصليب بالنسبة إلي ليس ديانة، إنه رمز لقبول آلامنا بعضنا بحق بعض، وموافقتنا على أن الإنسان بحاجة إلى من يصبر على إساءته وأذيته، فحين يغرس شخص ما كلماته القاسية في روحي، أو سلاحه في صدري، فهو نعم يؤذيني، وربما يقتلني، ولكن هو يؤذي نفسه، ويقتلها في البداية، نعم إني أتألم من قسوته، ولكنه يتألم ضِعفَي آلامي لقسوته بحقي، وبحق نفسه. لقد قررت أن أحمل صليبها في عنقي، لأني قررت أن أحمل عنها آلامها على رحيل أمها، وآلامي على رحيلها، ووحده هذا الصليب هو الذي يجعلني أتفهم معنى أن أحملها بسلام. لذا أرجو ألا تعودي إلى السؤال عن سبب وجوده في عنقي ثانية.

ثارت غيرتها، واتسع بؤبؤا عينيها لشدة الحنق، وأخذت تخبره بالفرنسية عن مقدار الغيرة التي تعيشها هذه اللحظة، ثم وضعته أمام خيار وحيد لا بديل له:

عليك أن تختار بيني أنا الحية إلى جانبك، وبين هي الميتة في قبرها مع البابليين الذين قضوا قبل آلاف السنين!

التفت إليها، بعد أن شرد في حركة الناس في الشارع الذي يمر تحت مكان جلوسهما في الدور الثاني، قال:

- أنا إن خيرت بين الأحياء والأمـوات، فثقي أني سأختار الأموات، فما كانوا سيموتون لو خيروا في ذلك، وهم غير مسؤولين عن عدم الوفاء بعهودهم!

حملت حقيبة يدها، ونهضت بعدما أحست بتوتر شديد، ثم استدارت، وخطت باتجاه سلم النزول دون أن تنطق بكلمة، ولم تحدد الجهة التي ستقصدها، وبقي في مقعده هادئاً، يتم تناول الشاي بالليمون الذي طلبه، فإذ بنادل القهوة يصعد إليه، ويناوله قطعة ورق منها كتبت فيها «يمكنك السفر ساعة تريد، لن ترى وجهي بعد هذا!».

أعاد ثني الورقة كما كانت، وراح يمزقها بمنتهى الهدوء، ويغالي في تمزيقها، والنادل ينتظر فرصة ليتحدث إليه، حتى وضع قصاصات الورق كلها في كفه، فاستسمحه بالجلوس إلى جانبه، ثم عرفه بنفسه، وأن اسمه رشيد، وراح يهدئ، ويطيب خاطره، ويخبره بطباع الفتيات في بلاده؛ بلهجة كانت تخرج من فمه رقيقة لطيفة، ما ساعده على الأخذ والرد معه والتنقل من حديث إلى آخر.

٥٠

لمحها وقد عادت تبتسم، ثم ضحكت وهي تقول:

- لا شك أن رشيد تكفل بفضحي وتلطيخ صورتي وقد آتته الفرصة كما يريد!

فضحك رشيد ورد عليها:

- لا نينا، في الحقيقة، أنا كل طمعي في البقشيش، وأنت أفسدتِ عليَّ خداع هذا السيد الكريم.

ابتسم له، وطمأنه بأنه سيفعل، وبقي صامتاً، فيما جلست هي، وراحت تتأسف، وتبرر تصرفها، وترده إلى غيرتها التي تدفعها إلى الحماقة والغضب، ثم طوقت عنقه بيديها وراحت تقبله، فتعالى التصفيق، والتصفير من الشباب الذين توقفوا في الشارع لمراقبة هذا المشهد، ومن أولئك الذين كانوا يراقبون الغروب من على الشرفات، واستمرت في عناقها له، رافعة لهم إشارة الإعجاب بيدها، وهمست في أذنه:

- لقد تسببت لي بفضيحة كبرى في المدينة، ولكني بالتأكيد سأكون مشهورة بلقب، السيدة التي تغضب، وتعانق في العلن!

ثم اعتدلت في جلوسها، واقترحت عليه أن يغادرا المكان، بعد أن نادت رشيد فأحضر الفاتورة بغلاف جلدي بني اللون ضخم الحجم، ما جعله يقهقه عالياً، ويقول:

- أنت شرير، لقد كبرت الغلاف، لتضمن بقشيشاً كبيراً، كما تشتهي.

وضع داخل الغلاف المبلغ المطلوب فقط، ثم انصرفا وهما يضحكان، وغادرا المقهى، ليتواريا خلف جذع شجرة إلى جانب الباب، وراحا يراقبان رشيد، الذي عد النقود، وأعاد عدها مشككاً فيها، وهما يضحكان، حتى يئس من إيجاد البقشيش، فسلم النقود إلى موظف الصندوق، وانصرف، ثم سمع صوتاً ينادي باسمه، التفت إليه، فلمح إيماءته، وتوجه صوبه، ليتناول البقشيش، وهو يضحك ، ويخبره أنه مجرد مقلب لممازحته ليس إلا!

أخبرته بأنها ستصطحبه إلى مطعم شعبي يقدم اللوبياء التي يتناولها الفقراء والأغنياء من عنده على السواء، وأخذت تعبر به الشوارع، والأزقـة، وهو يوزع نظراته التي راحت تلتقط الصور والمشاهد، كأنها لسان ضفدع ضخم يلتقط الفراشات التي ترف فوق رأسه، فذاك حذاء تدلى بفردتيه على الأسلاك الكهربائية، وتلك نافذة طرز إطارها برسوم ونقوش ملونة، وذاك غيني يبسّط على الرصيف بعدد من الأقنعة الخشبية التي جلبها من قبائل بلادها ليبيعها للسياح، وتلك عجوز جلست تبيع السجائر، وفي الجهة المقابلة من الشارع، فرقة ارتدى أفرادها الزي الفولكلوري، يعزفون الموسيقى الشعبية، تتوسطهم فتاتان تشطحان، وقد التف حولهم بعض الناس يصفقون، ثما دلفت به داخل أزقة تصطف على جنباتها بيوت الصفائح والتنك، ما جعله يتذكر مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان والأردن، فأحس بفضول السؤال عن سبب عبورها هذا الحي؟

٥١

وأخبرته بأنها تختصر الطريق، ثم نزلت أمامه درجاً ترابياً، رصفت درجاته بقطع محطمة من نفايات البلاط، ودخلا جوف سوق مسقوفة بالصفائح المعدنية، وأخبرته بأنهما في سوق الكتب القديمة، وسارت أمامه في المسلك الضيق الذي يكاد لا يتسع لأكثر من موطئ قدم لازدحام جنباته برصات الكتب المكدسة، وهو يوزع عينيه فوق عناوينها بالعربية، والفرنسية، والإنكليزية، والإسبانية، ولفت انتباهه كتاب حمل فوق غلافه كتابة بأبجدية يراها للمرة الأولى، فشدها من يدها لتتوقف، ثم سأل البائع أن يناوله الكتاب للاطلاع عليه، فمد به إليه، وهو يسأله إن كان يتقن الأمازيغية، وراح يقلب صفحات الكتاب، ويسأل البائع عن ثمنه، ثم نقده ثمنه عشرة دراهم ، وعاد ليسألها إن كانت تجيد الأمازيغية قراءة وكتابة، فنفت ذلك، وسألته عن سبب شرائه كتاباً لا يتقن قراءة أبجديته، والباعة من حولهما يرجوانهما التوقف للاطلاع على ما لديهم من عناوين مميزة، وهي تخبره أنها كلما دخلت هذه السوق تضطر إلى عبورها بأقصى سرعة، كي تتخلص من حمى اقتناء الكتب التي تشتعل فيها كلما دنت من متاجر بيعها.

على مسافة أمتار خارج الباب الذي غادرا منه سوق الكتب القديمة ، انتشرت على الرصيف البارد، والباهت، بضع طاولات خشبية قديمة، أمام محل ذي واجهة زجاجية تكسر معظم قطعها، تفوح منه رائحة اللوبياء الشعبية، جلسا إلى طاولة بمحاذاة حافة الرصيف، وطلبا من الشاب الذي أقبل يقول ممازحاً:

- المينو عندنا يحوي طبخة واحدة فقط: لوبيا، ولوبياء، ولوبياء، وجميعها بالحر.

طلبت صحنين، ومـاءً، وسحبت من علبة السجائر واحدة لتشعلها، فأخذها من يدها، وأعادها إلى العلبة، طالباً تأجيل ذلك إلى ما بعد تناول الطعام.

وضع الخادم صحني اللوبياء، وبعض الخبز والماء، فوق الطاولة، وانصرف، وبقي هو يتأمل الصحن، ويشتم رائحته الزكية، فيما راحت هي تغمس الخبز في المرق، وتأكله، وتهمهم: - آه لذيذ .

قطع من الرغيف بعض الخبز، وغمسه في الحساء، ثم رفعه إلى فمه بحذر، ومد طرف لسانه ليتذوق الحساء الذي أحسه شديد الحر والحرارة، لكنه فعلاً كما قالت لذيذ المذاق ، دنا منه طفلان مشردان؛ لملامحهما من البؤس ما يكفي لإرضاخ أقسى البخلاء، والاستجابة لرجائهما، وسأله الصغير إن كان بإمكانه أن يطعمهما لأنهما منذ الصباح يتضوران جوعاً، فأحضر لكل منهما طبقاً، وأجلسهما إلى الطاولة، وراح يكمل تناول طعامه، ويراقب الطفلين اللذين راحا يأكلان، ويبتسمان شاكرين. ثم أحس بيد على كتفه اليمنى، التفت فإذ بعجوز تجاوز الثمانين، بعباءة مغربية رثة، وقبعة ممزقة فوق رأسه، بوجهٍ كثيف الشعر، اختلط فيه شعر الأنف بشعر الشاربين واللحية الكثة، وتحت الجبين حاجبان أشيبان كثيفا الشعر طويلاه، كأنهما جسرا عبور ليليان تحت الخطوط التي تمتد عميقاً من طرف الجبين

إلى طرفه فوق عينين تغوران بصغرهما في محجريهما بنظرة حادة الانكسار، كأنها اكتسبتها منذ لحظات الولادة الأولى، ومن يدري، فلربما ولدت بها، سأله العجوز، وأعاد السؤال دون أن يفهم طلبه بعد أن قال: «اعطني جوج دراهم ناكلو البصالة»، فشرحت له أنه يريد درهمين ليتناول البصالة وفسرت له ما هي البصالة، فنهض وساعده على الجلوس إلى طاولته إلى جانب الطفلين، وطلب له الوجبة التي يشتهي، وعاد الجميع يأكلون، وما هي إلا لحظات حتى تقاطر الفقراء والمساكين إلى طاولته يطلبون الطعام، وهو يجلسهم ويقدم لهم الوجبات التي يطلبونها، فتضحك فرحة بما يفعل، فيما شاب المطعم يردد: ستطعم المغرب كله إن بقيت على هذه الحالة، وتمنى لو أنه يستطيع فعل ذلك ولو لمرة فقط، ثم توقف عن الطعام، وأخذ يتأمل ضيوفه المساكين، يتناولون وجباتهم بارتباك ونهم، يشوبه أحياناً تدافع الأيدي في الأطباق، وهمسات التنازع على الطعام، فيبتسم لمن تقع عيناه بعينيه، ويرجوهم أن يطلبوا إن أرادوا المزيد من الطعام، فتنفرج أسارير وجوههم، ويحمدون الله.

٥٢

طلب الفاتورة، وأتى شاب المطعم بها، يناوله إياها قائلاً:

حسابك كبير بزاف يا السيد، مئة درهم!

ثم ضحك وطلب منه المجيء إلى المطعم كل يوم، وهو سيتكفل

بإحضار المزيد من الفقراء إلى مائدته على أن يتكفل هو بالحساب، ثم تناول المبلغ من يده وانصرف ساخراً.

كان ينقر بسبابته على حافة الطاولة، ويحلل سخرية شاب المطعم من تصرفه، فتوجه إليها بسؤال عن ثمن علبة سجائر المارلبورو التي تدخنها، فأخبرته أن ثمنها ٤٥ درهماً، لأنها تهريب وليست من إدارة التبغ المغربية، وسألها كم علبة تدخن في اليوم، فأجابته بأنها غالباً ما تحتاج إلى أكثر من علبة، وبالتالي فهي تنفق كل يوم تسعين درهماً، أي ما يعادل ثمن ما تناوله أولئك المساكين ، فهز رأسه متفهماً أسباب الفقر والمجاعة في بلد يحتضن بذراعيه شواطئ المتوسط والأطلسي، يثرثر الناس فيه بكلام في السياسة والثقافة ما ينأى بهم عن حل مشكلات الفقر، تاركين ملامح الحزن تكسو وجوه أمثال شاب المطعم، الذي يصادف أن يلتقي المرء كثيراً من أمثاله في طرقات حياته اليومية كضحية من ضحايا غيلان الاقتصاد العالمي الذين عرفوا كيف يتقاسمون كل شيء بما فيه من ناس.

أثناء طريق العودة مرَّا أمام مكتبة، فطلب منها الدخول إليها، وراح يستكشف عناوين الكتب، ثم طلب قطعتي كرتون من المقاس الكبير، وألواناً مائية، وسأل البائع إن كان يبيع تلك الألوان التي عادة ما تباع بالوزن، فأدخلهما إلى مستودع داخلي، فطلب منه أن يزن من كل لون ربع كلغ، ثم اختار ريشاً كبيرة، وأكواب بلاستيك.. دفع ثمن الفاتورة،

وغادرا المكتبة، دون أن تسأله عن حاجته لكل هذه الكمية من أدوات الرسم، سلكت به ممرات تختصر المسافة، لتعبر حارات شعبية، وأزقة، حتى توقفت إلى جانب بسطة، علق صاحبها فوقها قنديلاً يشع على قدر تشتعل تحته نار خفيفة، إلى جانبه عدة أكواب من الفخار، في أحدها أعواد قش صغيرة، وملح وبهارات، وشرائح فاكهة الليمون الحامض.

٥٣

طلبت لكل منهما طبقاً، فأخرج الرجل كرسيين صغيرين من جوف بسطته، وضعهما حول طاولة صغيرة، ودعاهما للتفضل بالجلوس، ثم غاب للحظات، وعاد ليحضر الطبقين، وإلى جانب كل منهما وضع كوباً مليئاً بحساء أخضر اللون، وبعض القش..

فتوجه إليه بالسؤال: - هل لك أن تخبرني ما هذه الوجبة؟!

فرد الرجل : - يبدو أن السيد ليس مغربياً، لا تخف، السيدة ديالك ستشرح لك فوائده!

انصرف الرجل، فاحتجت هي على السؤال، إذ ينبغي أن يتوجه به إليها وليس إلى البائع ثم أخبرته أنها أكلة شعبية من الحلزون المسلوق وحساء خليط من أعشاب برية، وراحت تشرح له فوائدها في البرد، وتغذية الأعصاب، وتقوية الشكيمة! ونبهته إلى أن الحساء حار، يحوي كثيراً من الشطة، وراحت تخرج من كوة الصدفة التي بيدها الحلزون

بالقشة، وتأكله، ثم تشرب الحساء بالملعقة، وهو يراقبها، عاجزاً عن اتخاذ قرار تناول هذه الوجبة التي لم يجربها من قبل، حتى مدت القشة التي بيدها بعد أن غرست رأسها بحلزون إلى فمه، ففتح فمه وتناوله دون أن يستمهل نفسه للتهيؤ، وأحس بغرابة طعمه بادئ الأمر، إلا أن ملعقة الحساء التي دستها في فمه، شغلته بحرارتها، وشدة حرها، وبنكهتها اللذيذة عما سبق، فأحس بأن شهيته تطلب المزيد من هذه الأكلة، وراح يتناولها، وفي داخله ما يحرض على الاستزادة، يعززها ذلك الكم من المشاهد التي راحت مخيلته تستعيدها من ليلة الأمس بعد أن عادا إلى الفندق مخمورين.

بعد الانتهاء من هذه الوجبة التي يتوقع أن يؤتي مفعولها بكثير من النتائج، حملا أغراضهما، وغادرا المكان، ضاحكين لأن صاحب البسطة ، أكد له بأنه سيشكره جداً بعد ساعات.

طلب منها في شقة الفندق أن تدخل الغرفة، وأن تغلق الباب خلفها، وألا تعود حتى يناديها، فيما بقي في الصالة، التي رفع من أرضها السجادة، وأزاح بقية أثاثها إلى زاوية منها، ثم فرشها بالأوراق، وهيأها لما يريد، خلع ملابسه، وأطفأ الأنوار، وناداها لتخرج فأدهشها ما رأت: سجادة الكرتون تتوسط الصالة، وعلى جنباتها صف مدهش من الألوان التي كانت داخل أكياس البلاستيك الشفافة، وإلى جانب كل كيس كوب اللون، وفرشاة، وقطعة قماش صغيرة، وعلى مسافة شبر من سجادة الكرتون انتصبت دائرة من الشموع المضاءة، وقد فتح

التلفاز على قناة تبث موسيقى هادئة، ونثر في زاوية أخرى فوق سجادة الغرفة الوسائد الطرية، وقنينة نبيذ أحمر وكأسين!

ثم همس راجياً أن تتفهم أنه فاقد توازنه، الأمر الذي أثار شهواتها فعانقته عناقاً طويلاً محموماً بالقبل والمداعبات، وهو ينزع عنها ثيابها حتى غدت عارية، ثم تقدمت لتقف وسط سجادة الكرتون، قبالة المرآة التي إلى جانب الباب المؤدي إلى الحمام ، فيما راح هو يدور حول السجادة كما لو أنه يؤدي رقصة بدائية، متأملاً جسدها باحثاً عن نقطة انطلاق، ثم تناول الفرشاة وبللها باللون الأحمر، وراح يطلي نهديها، وعنقها، وهي ترتجف تحت حركة الفرشاة وملمس شعيراتها، واشتدت به الرغبة، فراح يطلي كل جسدها مع إيقاع الموسيقى التي يسمعها، فترتفع حدة حركاته، وتنخفض، لتمزقها بين الصبر والشبق والجنون الذي امتلكها، حتى بات كل جسدها ووجهها مغطى بالألوان، وهي تراقب وتتأمل انعكاسه في المرآة الطويلة، بعدها طلب منها أن تتمدد فوق السجادة الكرتونية، وأن تتقلب فوقها، لتطبع كل تفاصيل جسدها عليها، ثم أنهضها، وابتعدا عن السجادة الكرتونية بعد أن تركها لتجف.

٥٤

حملها إلى ركن الكؤوس والنبيذ، ومددها فوق السجادة، واضعاً خلف ظهرها بعض الوسائد، وناولها وتناول كأس النبيذ، وراحا يشربان، ويغيبان في صمت القبل التي لم يكن ليخترقه بين الحين

والآخر إلا صوت لعابهما الممتزج بعبق النبيذ، وامتلأت الصالة بروائح الألوان، والشموع، والنبيذ والجنس، وراحت رغبة كل منهما تفتش عن حاجتها في جسد الآخر، فيما أصابع كل منهما تتحرك كما لو أنها فوق مفاتيح آلة موسيقية ، وتعالت وتيرة الرغبة، واشتد صهيلها، ليهمس في أذنها ما طلبته من كلمات، فقد أخبرته أنها إن فقدت توازنها عليه أن يتفوه في أذنها بكلمات بذيئة، وأن يعتدي عليها لفظياً.

غفت في مكانها، فغطاها، وتناول المقص وراح يقص اللوحة التي أبدعتها الألوان فوق جسدها، ويشكل منها قطع بازل، ليعيد جمعها حين تستيقظ أمام ناظريها، كما لو أنه يعيد خلقها حسب ما يشتهي، بعفوية، وغير دراية أو تخطيط، حتى إذا ما عجز عن إيجاد مكان قطعة ما، طلب منها أن تتعرى، ليبحث في جسدها عن مكان القطعة، فيستثير شهواتها، ويعودان إلى حمم جسديهما من جديد، لتنفعل، وتبعثر عن سبق إصرار قطع البازل بقدميها، وتجبره على إعادة تجميعها من جديد.

ثم توقف طويلاً وهو يفكر في اليوم الذي سيصاب فيه بالهلع، عندما يقوم بتثبيت آخر قطعة بازل في مكانها الصحيح، وتكتمل اللوحة وتأخذ شكلها النهائي، عندها ستكون المرة الأولى التي يتم فيها تشكيل قطع سجادة الكرتون هذه دون أن تبعثرها كما كانت تفعل، الأمر الذي جعله يتكور عارياً كجنين فوق هذه القطع، ليغيب في حزنه العميق!

٥٥

كان منزل العائلة أيام الطفولة غرفة واحدة، سقفه من الطين المخلوط بالقش المفروش فوق ألواح من الخشب تحملها أعمدة من جذوع أشجار الحور، وكان عدد أفراد العائلة كبيراً، ينام أطفالها الخمسة في فراشين متلاصقين على الأرض، لكن دفء تلك الغرفة لايزال تحت جلده إلى اليوم، يلازمه أنَّى سافر وارتحل، ليذكره بقدوم القضماني في الصباحات الباكرة، حين كانت تعطر القرية رائحة الحمص الماضي في طريقه إلى القضامة، وكان أطفال تلك العائلة ينتظرون أعياد الميلاد ليتحلقوا حول الموقد الذي كان في زاوية من زوايا تلك الغرفة، فيسافرون مع لهب النار، التي كانت أيامها تلفازهم ومسرحهم وسماء خيالهم الفسيحة، ومع كل مشهد كانوا يرسمون فوق قطع الكرتون الممزق وبأعواد الفحم التي يسحبونها من الموقد خلسة زهوراً وأشجاراً وعصافير، يتسلون بالقضامة والتين اليابس والزبيب، منتظرين أن توزع الأم كعك العيد عليهم!

كان الميلاد ورأس السنة أيامها بنكهة نار ذلك الموقد الدافئة، لهما حنان سقف تلك الغرفة الحميمة. كبر الأطفال، واختفت ضيافة العيد التي كانت قديماً، وعجزت الأم، وما عادت تعمل كعك العيد، الذي لايزال طعمه ورائحته وحميميته في وجدانه كما لو أنه الآن، لا شك أن أجمل مساحات الذاكرة هي تلك التي في أيام الطفولة..

كتب هذا النص على الفيس بوك، ووقعه بـ:«مساكين صغارنا اليوم، حالهم يحزن، فهم يولدون كباراً دفعة واحدة».

وانهالت التعليقات على المنشور، وهو يراقب ما يصله، ويحلله ويتفاعل معه بعقله وروحه.. نعم أطفالنا يكبرون دفعة واحدة، فكم من طفل فتح حساباً، وزور تاريخ ميلاده ليفعّل حسابه، وكذلك في بقية مواقع التواصل، لا بل وكم من طفل وطفلة، تسلقوا شهوات ورغبات بعض أصحاب الحسابات من الناضجين، وجروهم إلى انعطافات غير متوقعة، وتسببوا لهم بخيبات وإحباطات.

الجميع من حوله في المقهى يغوص في عالمه الخاص، عبر الفيس بوك وتويتر، وغيرهما من المواقع الأُخرى، وبعضهم وجد ضالته في واتس أب، لم لا، ونحن نعيش في أمة لا يمكن للواحد منا أن يعبر عن رغبته في زيارة الطبيب النفسي، كيف لا ونحن من قبيلة تحرم الفتاة على غير ابن عمها، وهي لا ترى فيه أكثر من أخ، كيف لا ونحن من مجتمع يبيح تعدد الزوجات للذكر ويحرم البوح بالحب على الفتاة، كيف لا ونحن عائلات يكنى الأب فيها باسم ولده ولو أتاه بعد عشر فتيات، كيف لا ونحن من ثقافة تتغزل بالعضو التناسلي للطفل، وتقول في تلك الحمامة المقولات، فيما تحس الفتاة أن عضوها التناسلي هو المسؤول الأول والأخير عن تخلف الأمة وتردي حالها.

ابتسم في نفسه، واستبشر كل الخير حين رأى جيلاً يقبل على التواصل بهذا النهم، والتفاعل مع هذا الكم الهائل من الأفكار والمنشورات والعقول والرؤى والتحليلات والتفسيرات غير آبه لأية محاذير أو نتائج قد يدعي بعضهم أنها تهدد السلامة الأخلاقية،

والوطنية، والمجتمعية، وهي لا تهدد، في الواقع، إلا تعفنه، وشهوة التخلف والشر فيه.

٥٦

في المدينة التي تقع في قلب العالم فقط عبر شبكات الأنترنيت، ومواقع التواصل، إلا أنها في الحقيقة خارج كوكب الأرض كله، ملايين من الباحثين عن الحب، المستعدين للمخاطرة بكل ما يملكون من مال ووقت وثقافة وعمل كي يجدوه، ولو عبر هذه المساحات المشعة من أجهزة اختلفت في حجومها وبعض وظائفها، إلا أنها التقت على خدمة حاجة أولئك الملايين الوحيدة «الحب» نعم الحب، ما يؤكد أن البشرية كلها قادرة على الحب، ولكن ليس بمقدور الجميع استثمار هذا الحب كما ينبغي.

إذ تفعل السنون فعلها في خلايا الجسد، وتحيل الأسود في الشعر إلى أبيض، وتسرق من البشرة نضارتها، وتصبغها بندوبٍ، وخطوطٍ، وغبرة لا يمكن لأحد مهما كان، إن سار حاملاً فوق كاهله حزمة السنين أن يفرّ من فعلها، لكنها تقف عاجزة أمام الجوهر والقلب والروح، فمهما ضعفت عضلة القلب، فإنه يأبى أن يضعف بغير الحب، ومهما انكسرت آمال الروح وتحطمت، إلا أن الروح تحمل الطفولة تميمة، تمكنها من القفز فوق أوتار الحب كما لو أنها نوتة موسيقية تبدأ بأصابع العازف، ولا تنتهي، ولن تنتهي مهما اتسعت دوائر موجاتها الصوتية، لتلامس محيط الدائرة الكونية الأوسع على الإطلاق.

فتح محرك غوغل وراح يقلب في أرشيف إصدارات الجرائد قبل خمسة وعشرين عاماً، معيداً لذاكرته أحداثاً عاشها، وأخرى سمع عنها، وغيرها فاتته لسبب ما أو بلا سبب، حتى توقف مؤشر البحث عند صفحة، حملت خبراً أعاد إليه تفاصيل الذكريات صغيرها وكبيرها آنذاك «العثور على جثة عنصر من عناصر الأمن!».

كانت الساعة الواحدة والنصف ليلاً، عندما رن هاتفه وقد كان في زيارة لصديقه في قرية مجاورة، نظر إلى شاشة الهاتف فرأى رسالة من زوجته، فتحها وقرأها، فانتفض من مكانه كالمجنون، وانتصب واقفاً، ما جعل صديقه يشعر بالقلق حيال تصرفه، فسأله عن محتوى الرسالة، ولم يجبه، وقال له أنقذني بمسدسك على الفور، فنهض عن الكنبة التي كان يجلس عليها، وسحب منها المسدس، وقام بفحص أهلية الأمان فيه، وتحقق من وجود الرصاصات في عبوة التعشيق، ثم ناوله إياه، وأعاد السؤال: ألن تخبرني بما يجري، لكنه بقي صامتاً لحظات، ثم قال له إذا لم أنج أوصيك بالعائلة، وانصرف دون أن يجيب عن سؤال صديقه إن كان يحتاج أن يرافقه؟

كانت منى قد كتبت في رسالتها عبر الهاتف لزوجها حسين: «إنه يطرق الباب، ويعلم أنك خارج المنزل ويهددني»، فأيقظت هذه الرسالة كل أفعال عناصر الجراد الشرقي القذر منذ ذلك الموقف عند الحاجز إلى صفعتهم لأبيه، مروراً بأخبار أقل ما يقال فيها إنها أبشع أنواع الإذلال، وراحت الصور تتوارد إلى ذاكرته تباعاً، كيف كان ينظر

إليها كلما مروا بحاجزه، وكيف يقتحم البيت ليشرب القهوة، وهم يحاولون جاهدين استيعاب الأمر، وكيف هدده إن حاول أن يشكوه إلى مسؤوله، بأنه سوف يدعي أنه على علاقة جسدية بها، وسيفضحها ويدمرهما معاً! وكيف دعا نفسه إلى الغداء، وكيف فكر حسين عشرات المرات في الرحيل ومغادرة البلدة إلى أي مكان، وكل همه الخلاص من هذا الكابوس، الذي كما يبدو لا مفر للخلاص منه إلَّا بالخسارة المفجعة، فهز رأسه وقال في نفسه: فليكن ما يكون، لن أعيش مع هذا التوتر والقلق والذل بعد اليوم!

٥٧

أطفأ مصابيح سيارته، وراح يقترب من البيت بحذر، محاولاً استطلاع المكان جيداً، ليتحقق إن كان بمفرده، أم أنه قد أتى بمن يحميه، في حال احتاج إلى مساعدة، وكان لحدسه التخمين الصحيح، فقد لمح اشتعال قداحة في السيارة التي تقف أمام البيت، وعرف أنه بصحبة رفاق، لذا أوقف سيارته أمام بيت الجيران بعيداً عن بيته قرابة خمسين متراً، ولقم المسدس، ونزل يتسلل بين البيوت، ثم مشى عبر قطعة الأرض التي خلف بيته، وانحنى وعبر الشريط الشائك، وتسلق الجدار الذي يوصله إلى شرفة جانبية في شقة لاتزال قيد التشطيب، وخطا في ظلمة الغرف التي كانت وحشتها أخف وطأة من وحشة روحه التي عزمت على هذا الحل القاسي لمشكلته، ثم أتاه من خلفه،

وظل يتسلل على رأس قدميه حتى وضع له المسدس في رأسه، وليقول بصوت خافت:

- إياك أن تتحرك، وإلا أفرغت المسدس في رأسك!

مد يده إلى خصره، ونزع منه مسدسه، ثم أمره بأن ينزل الدرج أمامه، وطلب منه التوجه إلى غرفة خلفية لها باب حديدي متين، فتح رتاجه، ودفع الباب إلى الداخل، ودفعه إليها، ثم ضربه بقبضة المسدس على رأسه، فأغماه، وأفقده الوعي، وتناول حبلاً ما كان ليضيع مكانه، فقد ألف موقعه من الجدار نهاراً، ربطه بقوة، وألبسه في رأسه كيس خيش، وراح يبحث في جيوبه، ليجد هاتفاً ومحفظة.

حملها جميعاً، وصعد ليختبئ في الشقة غير المكتملة، وقد تناول هاتفه، ورد على رسالة زوجته: «أنا في الشقة المقابلة، لا تقلقي إبقي هادئة، لقد ربطته بالحبل، ولكن رفيقه ينتظره في السيارة، إياك أن تفتحي الباب».

بعد لحظات أشعت شاشة هاتف عنصر الجراد، فتحه ليعلم أنه صديقه الذي ينتظره في السيارة، يسأله برسالة إن كان سيتأخر! فرد عليه أن بإمكانه أن يذهب ليعود بعد ساعة، فالوضع جيد جداً. وبقي ينتظر بحذر أشبه بلحظات ما قبل تنفيذ حكم بإعدام، حتى سمع محرك السيارة في الأسفل، ثم سمعها تنطلق باتجاه الحاجز.

جعل احتلال الجراد الشرقي للبلاد حياة الناس جحيماً، إذ صار الناس يمتنعون عن الخروج بعد إقفال أبواب المنازل عليهم مساءً مهما جرى خارجها، وصارت ثقافة النأي بالنفس عن المشاكل منهج

حياتهم، وكادت تسجل المروءة غياباً كلياً، إذا ما استثنينا منها بعض المواقف المتهورة والجريئة لبعض الأشخاص..

٥٨

نزل إلى الغرفة، وقدح بولاعته، فلمحه يتململ في وضعيته، فتقدم منه وأعاد ضربه بالمسدس من جديد، ليعيده إلى ما كان عليه، ثم خرج مسرعاً، وأحضر سيارته وقد أوقفها موجهاً مقدمتها صوب الشارع، وفتح صندوقها، وعاد من الغرفة يحمل عنصر الجراد، ويضعه في الصندوق الذي أغلقه بهدوء، ثم انطلق بها دون أن ينير المصابيح، بين البيوت الممتدة على جانبي طريق زراعية، تفضي إلى سفح الجبل حيث يوجد معمل للفطر، أغلق منذ سنوات، ودمرت أبوابه ونوافذه، وبات خراباً، راجياً الله ألا يكون قد رآه أحد.

أنزله من صندوق السيارة، وكشف الكيس عن رأسه، وفك الحبل عن قدميه وراح يركله ليسير أمامه، وقد امتلأ حقداً، بعد أن بلغ حال اللاعودة عن قراره، فيم كان الأخير يرجوه، ويتوسل إليه أن يخلي سبيله تارة، وينبهه من عواقب ما ينوي ارتكابه طوراً.

عاد إلى منزله وفي رأسه طواحين الغضب تطحن طمأنينته وسعادة الأمس، وفي صدره شواكيش القهر تدق شرايين قلبه غضباً، وتمزقها انفعالاً.

أحست بخطاه فوق الدرج، ففتحت الباب، كيف لا وهي التي

كانت تحفظ تفاصيل التفاصيل في تحركاته، وأنفاسه، ومشيته، ووقفاته، والتفاتاته، وجلوسه ونومه وقيامه، وكل ما لا يعرفه هو عن نفسه قدر معرفته بها! عانقته ودخلا المنزل صامتين.

في الصباح، راح الناس يتساءلون عن صوت تلك الطلقة التي دوت في الهزيع الثاني من الليل، دون أن يحصلوا على جواب عن تلك التساؤلات إلا بعد أيام، حين شاع خبر أن الراعي هواش وأثناء وجوده مع قطيعه في محيط معمل الفطر اشتم رائحة كريهة، وأصيب بالرعب عندما دخل المعمل لقضاء حاجته، حين رأى جثة تنكب على وجهها، وقد فجرت طلقة رأسها، وإلى جانبها محفظة، وهاتف جوال.. ما جعله يرسل ولده الذي كان يسرح معه خلف القطيع، ليحضر المختار، الذي اتصل بالدرك، وما هي إلا دقائق حتى راحت الطريق الزراعية تعج بالسيارات التي تذهب إلى معمل الفطر وتعود منه.

ثم عرف الناس أن الجثة تعود إلى عنصر من مخابرات الجراد الشرقي، ذلك الذي شمت الناس لموته كثيراً، متمنين أن يشكروا قاتله، واصفينه بأفضل خصال الرجولة والشهامة.

نسي الجميع موت ذلك العنصر، إلا حسين ومنى اللذان باتا يشعران أن المنزل مراقب، وأن المسدس الذي تخلص منه برميه في جورة المرحاض، قد يختفي كأداة جريمة، لكن تعذيب المحقق الذي راح يراه كوابيس في أحلامه، قد يصبح حقيقة، حين تسأل زوجة صديقه عن المسدس، وقد ينتشر سؤالها على الألسن هنا وهناك، ما

يضع في يد الجهات الأمنية خيطاً يمكنهم من الوصول إليه بطريقة أو بأخرى؛ حتى قرر حمل حقيبته، وركوب الطائرة إلى فينزويلا، كونها البلد الذي له فيه من الأصدقاء ما يمكنه من بدء حياة جديدة؛ مخلفاً وراءه منى التي ما عادت تعرف طعماً للحياة غير طعم القلق والقهر والخوف والتوجس! ما جعلها تدخل دوامة الكآبة، وإدمان البروزاك للتمكن من التقاط أنفاسها التي باتت بلا شك على آخر مخارجها!

٥٩

مرت السنوات، وطال وجود الجراد المحتل لبلاد الزهور، وصار حسين عاجزاً عن التواصل مع منى بسبب مرضها، وعاجزاً عن العودة إلى الوطن، وصارت منى تحكي بصوت مسموع كل ما في أعماقها، غير آبهة لرد فعل الناس وتفسيراتهم لما تقول، فتارة تصف نفسها بالغبية لأنها ما فتحت الباب لعنصر الجراد، وتركته يأخذ ما يريد، دون أن تخبر حسين، لتكمل حياتها كما لو أن شيئاً لم يكن، وطوراً تلوم نفسها لأنها لم تفتح الباب وتقتله بيدها، وليكن ما يكون، ولتدخل السجن، ليبقى حسين في بلده يهتم بأطفاله وأهله، فها هي اليوم تدفع ثمن ما جرى تمزقاً وخذلاناً وسجناً، نعم لقد خذلها كل شيء، لقد عملت أجهزة أمن الجراد المحتل على تسريب أخبار عن علاقة ذلك العنصر المقيت بها، ما جعل شباباً من البلدة يتقربون منها، أملاً بأن ينالوا نصيباً

من ذلك الذي عجز عنه غراب البين، وسُربت معلومات تفيد بكشف الفاعل، ما جعل أهل زوجها حسين يشكون فيها، ويتصرفون معها كما لو كانت المسؤولة عن هذه المصيبة، وتعود لتقول في نفسها، ولكني فعلاً المسؤولة، وتتمنى لنفسها الموت، وتفكر في الانتحار، وصارت تستيقظ ليلاً، تبحث عن حسين في سريرها، ولا تجده، فتحضر ألبوم الصور، وتبقى حتى منتصف النهار، تقلب صفحاته، تتذكر وتبكي، ثم تشتمه وتلعنه، وتصرخ كلبؤة حرقة على غيابه، فتصعد على صوت صراخها نسوة الحي، ويطرقن بابها طويلاً، فتفتح لهن، ليطيبن خاطرها، ويقضين معها بعض الوقت دون أن يغير ذلك من حالها الذي ما عاد له حل سوى المضي في انهياراتها حتى النهاية.

ذات صباح متأخر شتوي بارد كحياتها التي لم يعد بإمكان أي شيء أن يبعث فيها الدفء، طرق بابها شخص، وكان قد صعد إليها مع أم زوجها، وجلس ليخبرها أن حسين يسلم عليها، وناولها رسالة ومبلغاً من المال، ثم صمت عندما سألته عن صحته، ففرت الدموع من عينيه، ما جعلها تشعر وكأن أنياب ذئب تنهش قلبها، فأمسكت بيده وقبلتها، تتوسل وتقول:

- أرجوك صارحني قل لي كيف حال صحته؟

فتنهد، ومسح دموعه، وقال:

- لقد أمنني أن أوصيك بالأولاد، وأن تهتمي بنفسك!

وراح جسدها يرتجف، وصارت تهتز كما لو أنها قصبة في وجه

الريح، وفتحت عينيها على أشد اتساعهما، وعضت بنابها على شفتها السفلى، تاركة دموعها تسيل على خديها كما لو أنها لم تبك مذ غادر. ثم راح يخبرها كيف تعرض حسين إلى مشاكل صحية، وكيف تردت حاله، وكيف لازم غرفته في نهاية أيامه، وأنهم اهتموا ببقية التفاصيل.

٦٠

تملكت أم حسين حالة من الهذيان، وعلق لسانها، على عبارة، «يا ميمتي يابني» وأخذت تفرك يداً بيد، وتضرب رأسها بكفها، وتنوح فتقدمت منها منى واحتضنتها، وراحت الاثنتان تنتحبان، وتنوحان، وتعويان كذئبتين أثخنتهما جراحهما على حبيب مشترك، فارقهما بلوعة هي بالقدر نفسه في قلب كل منهما!

بقيت الرسالة مغلقة، حتى انتهت أيام العزاء، فما قيمة أي شيء رحل صاحبه؟ وما نفع أي كلام وصل منه، وقد غاب هو إلى الأبد؟!

تناولت الرسالة من درج خزانة الحائط، وتوجهت إلى السرير، وراحت تقلبها قبل أن تفتحها، وتتأمل خطه فوقها، ثم رفعتها، وراحت تمسح بها وجهها، وتشمها، وتبكي مرددة كل عبارات الحب التي سمعتها منه، وأسمعتها له، حتى غفت وهي تحضن وسادته والرسالة التي لم تفتحها، لأنها آثرت أن تبقي على شيء من الخصوصية لها مادامت حية.

بعد عدة أشهر، طالبها الأب بالرسالة، فترددت في إعطائه إياها،

لكنها أشفقت على أب بات يجلس وقتاً طويلاً صامتاً لا يتكلم، رغم أن العديد من أترابه ما تخلوا عنه، لا بل حافظوا على تبادل تسليته، فما يكاد يغادر صديق، حتى يأتي آخر، إلَّا أن هذا لم يكن ليبدل في حاله شيئاً، ولم يكن ليخفف عنه الحزن، إذ بقيت ذاكرته تسترد سنوات طفولته، ومراهقته، ومراحل تمرده عليه! وصار ينادي كل أبنائه ذكوراً وفتيات باسمه.

أخذ الرسالة، وراح يسير مستنداً إلى عكازه في الطريق الزراعية، حتى بلغ شجرة التين التي كان يلعب ورفاقه تحتها أيام الطفولة، تأمل جذعها الذي مازال يحمل آثار اسمه الذي حفره عند أول تفرعها، ومسح فوقه بكفه، ثم استدار، واستند إلى عكازه وراح ينزل ببطء حتى تمكن من الجلوس، ثم أسند ظهره إلى جذع التينة، وزفر أنفاسه، أمسك الرسالة وراح يقلبها بين كفيه، محاولاً الربط بين ملامح خطه فوقها، وملامح خطه فوق كتب الدراسة التي خلفها وراءه، مستحضراً ملامح وجهه، وقد أحس بالنار تلتهم السكينة في قلبه، فيجف ريقه ودمعه، تقسو ملمح وجهه لشدة الحزن الذي سكنه.

فتح مغلف الرسالة كا لو أنه يخيط لابنه ملابس كتلك التي كان يجهزها له مع مطلع كل فصل، فقد كان يؤجل كل طلبيات الزبائن قائلًا قبل أن أنهي ملابس حسون لن أمسك قطعة قماش لأي كان. أخرج الرسالة، وراح يمر بعينيه فوق أحرفها دون أن يقرأ ثم بدأ يلثمها،

وأجهش بالبكاء، وما أصعب أن يبكي أب عجوز ابناً قضى في غربته، دون أن يعيش مشاعر مواراة جثمانه في الثرى، ومن يعش هذه الحالة يقضِ عمره غير مصدق لموت خليله، لا بل يظل العمر منتظراً إطلالته مع كل غروب، لكنه راح يتماسك، وبدأ يقرأ الرسالة:

٦١

حبيبتي منى، أم أيتام ما كان لي ذنب في يتمهم أكثر من حبي لك وغيرتي الجنونية عليك، وشعوري المفرط بالكرامة.. أنا مريض منذ أشهر، أعاني سرطان الرئة بسبب الإفراط في التدخين، وما العمل وأنت والأهل والأولاد في منفى بعيد إلى حد اعتقاله ووضعه في سجن. نعم لقد صارت السيجارة أنت والأولاد وأبي وأمي، أدخنها بعشق كأني أجعلكم تدخلون دمي ورئتي، لذا أصابني ذلك المرض الذي أظنه سيرحمني أكثر من أولئك الذين ينتظرون الإيقاع بي.

إن وصلك مال فاعلمي أنه ليس مني، لقد أنفقت كل ما أملك على علاجي دون جدوى، والمال الذي بين يديك هو من صديقي الذي يحمل الرسالة، والذي كنت أبكي على كتفه وأغفو على ساعده كلما أصابتني نوبة ألم حادة، تجعله ينزل من بيته الذي في الدور العلوي إلى غرفتي التي في زاوية حديقة منزله، حيث آواني فيها بعد أن تردت حالتي، وراح يعاملني كأخيه، كل هذا لأني أنقذته يوماً من الموت، بعد أن توقفت كليتاه عن العمل، ومنحته أنا واحدة من كليتي.

اهتمي بنفسك والأولاد، وأحسني إلى أبي وأمي ما استطعتِ، لأني أعرف حرقة الأهل على ولدهم، واطلبي من أبي أن يصفح عني لأني سرقتُ يوماً من جيبه علبة السجائر الأولى التي تعلمت بها التدخين، وقولي لأمي أن تطعم عن روحي لأي فقير «عروس الباذنجان المكدوس»، لأنها آخر ما اشتهيته قبل رحيلي عن هذا العالم..

واعلمي يا منى أني لست نادماً على قتل ذلك النذل بل أنا أشعر بالفخر لأني فعلت. قبلاتي لكفيك الرقيقتين، وللأولاد، ولأهلي.. وأعانك الله على حزنك، ولا تنسوني من الدعاء.

المخلص حسين.

وظلت الرسالة بين كفيه اللتين تقبضان على العكاز، وقد حنى رأسه لتلامسها، وراح يبكي، وينتحب كما لو أنه عاد طفلاً، وفقد كل قدرته على التماسك والتصبر، وأحس بالدوار والصداع، فتحامل على نفسه، ونهض، ومشى في طريق العودة إلى البيت.

عندما وصل، نادى منى، وأعاد إليها الرسالة، وطلب منها أن تحضر الأولاد، وقد قرر أن يبيتوا في حضنه عن يمينه ويساره كما كان يفعل أبوهم أيام كان طفلاً! تنحت منى جانباً، وراحت تقلب الرسالة التي ما عاد أمامها مفر من قراءتها، بعد أن فض الأب غلافها، وصارت تقرأ والدمع يسيل من عينيها، ثم أخذت ترفع صوتها، بناء على طلب الأم، فتتداخل آهات الحرقة وأنين اللوعة بين الحروف والكلمات، ووجع البكاء، وبات المشهد كما لو أن خبر موته قد وصل

توّاً، وحضر بعض الجيران ليشاركوهم في حزنهم، ولتفتح مراسم العزاء من جديد، كيف لا وقد التهمت الحرب واحتلال الجراد لبلاد الزهور كل جميل وحلو، ولم يعد أمام الناس إلا الاستناد إلى أكتاف بعضهم بعضاً لتمرير ضائقاتهم التي باتت لا تعد ولا تحصى وصار يُسمع في كل يوم خبر عن جريمة، وقصة عن حادثة سرقة أو قتل، وجثة لمجهول هنا، وأخرى هناك. وكل هذا كان يشير إلى أن الإجراء الذي تم تأجيل اللجوء إليه طوال ما فات من سنوات بات وشيكاً، وقريباً ولا مفر من العمل به، فلا بد من الانتفاضة على ما يجري واللحاق بثورة إخوانهم في بقية المناطق التي لم تنتظر مرور الوقت لتشتعل بل بدأت نيرانها تلتهم المحتل وصاحب الأرض على السواء منذ اليوم الأول، فما سجل التاريخ منذ فجره أسباباً للحروب غيراقتصادية، رغم اكتسائها لعمامة أو عباءة دينية هنا وهناك، إلا أن الدافع الحقيقي لها هو المال والسلطة والسيطرة على مزيد منهما، فيقرر عامة الناس أن يكونوا جزءاً منها، لابل يغدون كلها في مرحلة من المراحل، لأنها المتنفس الوحيد لضعفهم وحقدهم عبر الزمن الذي وقفوا فيه أمام أنفسهم لا حول لهم ولا قوة، يحرضون ضعفهم كل وقت دون بلوغ لحظة التفجير، ويؤججون نار الرغبة في الانتقام دون أن يمتلكوا خيار التوقيت والتنفيذ، ليقوم بذلك عنهم أولئك الذين قضوا سنوات يهيئون لتلك المواقيت واللحظات، ويمسكون بزمام كل شيء، يجتهدون في صنع الحقائق التي يلوكها أولئك الساعون ليكونوا مجرد وقود في

مشروعهم ليس إلا، إذ تتوالد الشعارات والأيديولوجيا، والمواقف بين لحظة وضحاها، فكأنك تقف أمام مصنع ينتج منها يومياً ملايين، يرددونها، ويرفعونها، ويهتفون لها، ويستبسلون في خدمتها؛ لا لشيء أكثر من مجرد تنفيس عن كم هائل من اللاجدوى، وتعبيراً عن حالة مرضية في استساغة الآلام والجراح، حتى يتبين لك، أنك لو وقفت تراقب عن بعد، أن الشخص وعدوه ضحيتان من ضحايا الاستغلال، ليكونا هما العدوين فقط، فيما التنسيق بين صناع الحروب أشبه بلعبة طاولة الزهر، التي كلما رمى لاعب نردها استمتع بمجموع الأرقام التي تظهرها، فيقوم بحركة ما، توفر الظروف لحركة مقابلة، سيقوم بها الطرف المقابل برمية من نرده، وتستمر اللعبة بين لهو ومزاح، وتفاهمات، لا يفسد بينهما أي ملمح من ملامح العلاقة. ليظل الحمقى في تلك اللعبة مجرد حجارة سوداء وبيضاء، لا قيمة للخير والشر فيها أبعد من اللون، وتبقى المواقع المحررة والمحتلة مجرد خانات فوق رقعة خشبية صغيرة، ما أن يضجر اللاعبان منها حتى يطبقا ضفتيها على كل الحجارة معلنين انتهاء اللعب، أو توقفه إلى حين.

٦٢

موت هنا، قتل هناك، وضحايا تتوزع، وتتراكم في بيوت المساكين والحمقى. أطفال يفقدون استقرارهم العائلي بخسارة منزل أو عائلة أو جزء من أجسادهم، وعلى الشاشات الصغيرة منها والكبيرة؛ يتسارع

الناشطون بنشر أخبارها وصورها سعياً لتسجيل سبق ما، فذا يعتاش من بيع سلاح القتل والموت، وذاك من بيع أو تسريب معلومات سرية عن جماعته أو أعدائه أو.. وآخر يجري لاهثاً خلف صورة لجثة شوهتها نيران الحرب، ليحصّل قوته ويحقق نجاحه، وسواه يسير بقلمه فوق الورق تلاعباً بعقول القراء، وتعرية طرف لحساب آخر، وكشف حقيقة هنا وطمس أخرى هناك، طرباً لاستحسانات الذين يستعملونهم في حروبهم فقط، وغيره يترصد حساسية المواقف ودقتها، ليحتكر قوت المحتاجين، ويتلاعب برزقهم، ويبتزهم محولاً صعوبة ما يحدث إلى فرصة يذهّبها ببريق شهوته، والبعض يستحدث ما يمكنه من المساهمة في مضاعفة هذه الجحيم قسوة واستعاراً، فذا يهدم إلهاً، وذاك يخلق غيره، وهنا يغتال رب، وهناك يمنح صلاحيات أوسع، ودين يطرد ديناً، وإله يقتل إلهاً، وموت يخفف قسوة موت، وسراب يلغي سراباً، وجوع يهوّن جوعاً، وآلام تبرئ آلاماً... فكأن هذا الوطن البائس كله حقل براكين متلاصقة، لا ينفك بركان يخمد هنا حتى ينفجر بركان هناك مدمراً بحممه الحي والجامد، ومن فوق التراب ومن تحته، غير مانح الفرصة بالنجاة لأي ممن وقعوا في دائرته؛ ففي العراق مشهد سيارات التاكسي تسير وقد وضعت فوق شِباك سطحها تابوتاً لجثة عسكرية، أو لضحية من ضحايا الحرب بات مألوفاً، وبت تشاهد تقابل السيارات التي تقل تلك الجثث في الطرقات، لا بل بات سائقوها يستفسرون بعضهم من بعض - كلما تقابلوا - عن التكلفة، والمسافة، والأحياء

التي ينصح بالعمل فيها لقلة الازدحام، وفي فلسطين تسجل نواقل الأخبار كل يوم تقدماً واضحاً في عدد القتلى والضحايا، دون أن تسجل أي تقدم في رغبات الضعفاء في السلام، وفي لبنان تتقلص كل يوم مساحات الحرية الجغرافية، مع توالد فصائل الاقتتال الداخلي، وتصبح المدارس والجامعات ثكنات للمقاتلين التائهين في فلسفة الفئة التي على حق، وفي الجزائر تحرث أجساد العزل بالفؤوس والمعاول والسواطير، والحكومة تكاد لا تستطيع حماية أجهزتها العسكرية والأمنية، والصحراء الغربية تُسَعِّر حدة الحر فيها حدة المواجهات، ولا عبارة على ألسنة الناس سوى «الله يسترنا من أعظم»، وبيانات تتلى هنا، وخطب ترن هناك، فكأن آدم في شرقنا لا يكفيه تحميل حواء مسؤولية إغوائه، وطرده من الجنة، لينزل بها أشد العقوبات، ويصلبها كل يوم على خشبات الألم والتمزق والحرمان، ويخلفها أرملة هنا، ويتيمة هناك، وعاهرة في مكان ما، تبحث عن قوتها بعد انسداد كل الدروب إلى العيش الكريم، ومعيلة لأسرة فقدت كل معيل من الذكور، ما جعلها تقبل كل شروط الذكور في الحياة من تعدد في الزواج، وتبعية، ونقص عقل ونقص دين.. الأمر الذي زرع في عمق آلامها بذرة أمراض نفسية متعددة، فقد وثَّق تقرير للأمم المتحدة عبر إحصائياته أن من بين كل تسع نساء هناك واحدة تعاني الكآبة، والوسواس القهري، وبات جلياً في هذه المجتمعات مرأى المعاقين، والمجانين، وأطفال يولدون بعاهات، وإعاقات جسدية ونفسية، ولا أحد يعرف عمق الخسائر التي

تحدثها الحروب إلا من عاشها ودفع ثمنها من جسده ونفسه وجهده وتاريخه وفكره، فالكل يعرف كيف تبدأ الحرب، ولكن لا أحد يعرف كيف تنتهي، وإن اختفى صوت البنادق والمدافع والطائرات الحربية من حول الناس، فكيف ستختفي أصواتها من دواخلهم، والاتفاقيات التي توقع فوق الورق تأخذ حيز تنفيذها فوق الجغرافيا، ولكن أنَّى لها أن تأخذ حيز تنفيذها في نفوس الذين عاشوا الحروب، وقد تبقى الحرب مشتعلة فيهم إلى ما بعد القبور.

٦٣

أجمل الإيمان أن تحب ضعفك، وأن تعشق هزائمك البيضاء، فاختيار الخسارة، وكيفيتها، وتوقيتها أمر يحتاج إلى خبرة عميقة للتنقيب في عمق الذات، فكلما غصنا حفراً، تأصل فينا عطر الروح ، وتجوهر، ودنا من منبعه الشاهق.

وأن تحيا سلاماً رغم كل ما حولك من منغصات، يعني أن تفتح في عقلك وروحك ثقباً، لا تملك خياراً سواه، فمهما كان قطره ستدخل منه تفاصيل الحياة البسيطة التي نحتاج إليها، وإيماءات نرسمها بأيدينا ووجوهنا. فكل شيء فينا يضع شروطه، ويتحول الواحد منا إلى عدة شخصيات، لكل منها صوتها، وغريزتها، ولونها، ووجهها، وخاصيتها، ومشيتها وحركاتها؛ فالانفصام ليس تلك الحالات التي تثبت في أرشيف المستشفيات المختصة به، بل هو أعمق من ذلك بكثير، فكيف

يمكن لنا أن نضحك، ونبكي، ونرقص، ونصرخ، ونقتل، ونكذب، ونحب، ونضعف، ونغضب، وننجح، وننهزم، ونقبل، ونثور، ومئات من المواقف المتناقضة التي نعيشها في ذات واحدة، تحت جلد واحد، وفي رأس واحد، تحت الشعر نفسه، وخلف العينين نفسيهما، وفيما بعد الابتسامة نفسها، وبين إيقاع الخطوات نفسها، لولا ذاك الثقب الذي تخرج منه كل تلك الانفعالات، ومنه يدخل النور الذي يجفف آثارها.

بعد أن تغيب الشمس غروب كل نهار، يغلق السكان أبوابهم على الخارج، ليوقظوا أحزانهم، وليبحثوا عمن تبقى فيهم من الناس، فيفتحوا مخيلاتهم على ذكريات لا تتغير ملامحها، وإن تغيرت سنهم، بل تغوص فيهم غوراً ووجعاً وحدة، وتظل فطرتهم تحن إليها، فيفرشونها على موائد طعامهم، ويلبسونها مع أغطية وسائدهم، ولا يخلعونها إلا أذا أقبل الصباح، يضطرهم إلى ذلك مقصد من مقاصد الحياة.

كانت حليمة في السابعة من عمرها عندما وجدت نفسها أماً لطفلين، هما أخواها الصغيران، بعد أن شهدت بعينيها مقتل والديها على حاجز من حواجز ذلك الجراد الشرقي، كانت تركب مع أخويها سيارة أخرى، فيما كان أبواها في سيارتهما، أثناء طريق العودة من بلدة العروس التي أقلاها منها وقريبهم العريس نحو بلدتهم. وعند مرورهم على الحاجز، وقد كان من المفترض أن يفتح الحاجز لموكب العرس

الطريق، إلا أن عنصراً من عناصره قرر العكس، فوقعت مشادة كلامية بين بعض شبان الموكب وبينه، وتطور الإشكال إلى تهديدات وسحب سلاح، وفجأة بدأ إطلاق النار، ما جعل العرس يتحول إلى كارثة، فاستدارت السيارات التي كانت في مؤخرة الموكب وعادت لتسلك طريقاً مختلفة، وكانت وأخوتها في آخر سيارة تمكنت من النجاة، وقد رأت بعينيها من خلف زجاج السيارة الأمامي كيف سقط والدها بعد أن اخترقته الرصاصات، فركضت أمها صوبه، فأصابتها رصاصات من سلاح عنصر الجراد، وكوّمتها فوق زوجها، ما جعل الطفلة في دائرة ذلك المشهد وتأثيره، ومنعها من أي رد فعل غير الصمت، وتسمرت عيناها وما عادتا ترمشان، والآخرون في السيارة يهرجون ويمرجون، تناول أحدهم طفلاً وحضنه باكياً، وقامت أخرى بحضن أخيه واضعة كفها على عينيه، لتحجب عنه رؤية ما يجري، فيما بقيت حليمة تجلس فوق فخذ زوجة السائق، وقد تجمدت من هول الصدمة، وعجزت عن أي رد فعل وانفعال عدا الذهول، تاركة الألم يجول فيها، ليمزق ما يشتهي!

٦٤

وصلت السيارات الناجية إلى منزل العريس، والحال كما لو أن الكل يستعد لحربٍ لا مفر منها، شباب ملثمون بكامل أسلحتهم وعتادهم، يقفون بشكل يشعرك بغضبهم وبأنهم لن يتراجعوا عن

تنفيذ رغبتهم في القتال، وعجائز كشفن الغطاء عن شعورهن التي بدأن بشدّها، ورحن يصرخن وينتحبن ويولولن فقد وصل الخبر قبل وصول الناجين إلى البلدة، ودخل الكل حيرة لا يمكن تحديد وجه الهداية فيها، خصوصاً أن عدد الذين سقطوا عند الحاجز بلغ سبع جثث وكانت جثتا العروسين بينها، العروسان اللذان بلغ الحب بهما مبلغاً جعلهما يرتديان ثياب الفرح معاً وإلى الأبد.

نزل سائق السيارة التي تقل حليمة والطفلين، وتقدم يحمل أخاه ، ونزلت زوجته تحمل الطفلة التي بقيت على جمود ملامحها، والتي صُمَّتْ أُذُناها عن كل ما يدور حولها، فلا صوت في رأسها إلَّا صوت الرصاصات، وصوتا أمها وأبيها قبل السقوط، وفي عينيها ذلك السقوط والتفاتة من أبيها وقعت على عينيها أثناء ذلك، لتكون الوحيدة التي عرفت لوعته وهو يسقط ميتاً، ثم نزل الراكب الذي يحمل أخاها الأصغر، وتعالت لإطلالتهم موجة النواح والصراخ والتحريض على الانتقام ، وارتفع أزيز الرصاص المطلق في الهواء غضباً ورسالة تفيد بأنهم لن يسكتوا عما حدث، ما جعل الصغيرين يصرخان رعباً، فيما بقيت أختهما في صمتها وجمودها كتمثال صخري تحت قشرته الصلبة ألف وجع وآه.

أمضت البلدة ليلتها على قلق وتوتر، ونواح النساء وبكاء الأطفال، وتوعّدات الغاضبين الذين لا يعرف أحد ما الذي يجب أن يفعل لاستعادة الروية، والتعقل.. ومع ساعات الفجر الأولى أفاق الناس

على تحركات لدبابات وآليات عسكرية تطوقها، وحواجز أقيمت عند مدخلها، ومروحيات تحوم في سمائها، وانتشر خبر أن الأمن سيحقق في ما جرى عند الحاجز وسيحاسب الفاعلين، ولن يرحم، وراحت تعلو بين الناس عبارات المطالبة بالتهدئة والحذر والتروي، وآخرون ينادون بضرورة تصعيد الأمر وليكن ما يكون، فحياة الذل لم تعد تطاق، وانشغل من انشغل بإعداد مراسم الدفن للمتوفين .. فقد نصبت خيمة كبيرة في ساحة ترابية واسعة تتوسط البلدة، وجيء بمئات الكراسي التي صفت بطريقة تسمح للجميع بمشاهدة مركز الوسط حيث تقرّر وضع النعوش التي ستحمل جثث الضحايا الست، أما السابع فقد كان عنصر الجراد الذي تسبب بمقتلهم، والذي أرداه، أحد الشبان بعد أن طلع بجذعه من سقف إحدى السيارات التي استدار بها سائقها باتجاه معاكس لما كان عليه الموكب، وصوب مسدسه صوب عنصر الجراد، وأطلق عليه النار، ليوقف بذلك الرصاص الذي كان ينهال بطريقة جنونية من بندقيته على الناس، بعد أن فقد سيطرته على الموقف، وبعد أن تملكه الرعب لمّا تعالى صوت الناس المحتجين على تعطيل سير موكب العرس، فسقط في مكانه، وانطلقت السيارة كالريح، لينزل الشاب من فتحة سقفها، مشتعلاً غضباً، وهو يسأل السائق عن سبب انطلاقه، فهو يريد قتل المزيد منهم، والسائق يردد بأن سقوط هذا الشخص يكفي وعلينا أن نتوارى، والسؤال الآن عن الجهة التي عليهم أن يقصدوها، حتى قررا العودة إلى البلدة ليكونا بين أهلها كغيرهم وليكن ما يكون.

٦٥

كان الناس يتهامسون، حول هوية الشاب الملثم الذي لا يسير بمفرده بين المسلحين في ساحة التشييع، وخمنوا أنه بطلهم من خلال جعب القنابل التي تلف خصره، والحزام المتفجر الذي تدرع به فوق صدره، وبندقيته الجاهزة والمفتوح صمام أمانها لإطلاق النار، ولكونه يسير وأمامه اثنان من الشباب، وخلفه اثنان، واثنان عن يمينه ويساره، ليبدو للناس أنه قد فرز نفسه بشجاعته تلقائياً قائداً للموقف.

كانت الطفلة تقف إلى جانب جدار حجري، تتأمل من بعيد محاولة تحديد نعشي والديها بين النعوش الستة التي أحضر خمسة منها من البلدات المجاورة؛ فالمعتاد أن تملك البلدة نعشاً واحداً فقط، وإلى جانب المرأة التي تمسك بيدها، يقف أخواها اللذان لا يعرفان ما يحدث على وجه التحديد، لكنهما يشعران بالخوف والحزن والحاجة إلى الهروب والاختباء خلف أبويهما، فكثير من السلاح، وكثير من الصراخ والتحركات المتوترة، ومع مرور عدة دقائق يتقدم أحد المجتهدين ليعدل وقوف النعوش، ما يثير توالد الآراء، واختلافها، فيتقدم آخر ليعدل التعديل، ثم يبتعد الجميع، وأشخاص آخرون يجولون على الجلوس بمصبات القهوة المرة وأباريق المياه، وقد اشتدت حرارة الجو مع بلوغ الشمس كبد السماء، وتوافد العديد من المعزين من البلدات المجاورة، الذين راح الكثير منهم يستفسر

عن تفاصيل ما حدث، ويحرض، ويدعو إلى الثورة التي يريدونها أن تشتعل دون أن يكون لهم عود حطبٍ فيها!

توقفت السيارات التي تقل الجثث التي تنتظرها نعوشها منذ الصباح الباكر، لا بل منذ أن تكونت في أرحامها التي منها من فارق الحياة ومنها من يشتعل الآن حرقة ولوعة على رؤية ولده يسجى فوقها، ثم حملت النعوش لتوضع وسط الحشود، وكان المنظر أشد من أن يمكن التعبير عنه، ست جثث فوق ستة نعوش، تقاسمت الحزن عليها عائلاتها وجميع الحاضرين فالكل بكى، والكل تجهم، والكل أمسك على قلبه حزناً، فيما الطفلة تنظر من بعيد لما يفعله أخواها، فقد أخذهما قريبهما، وأجلس الكبير منهما فوق حافة نعش الأب، والصغير فوق حافة نعش الأم، وعاد ليجرها من يدها، وهي في صمتها وجمودها، وصدمتها التي لن يمكن أن تخرج منها ما دام أبواها مسجيين في التراب.

تقدم منها وحملها، وكشف الغطاء عن وجه أبيها، ثم عن وجه أمها وقرب وجهها منهما وطلب منها أن تقبلهما مودعة، وكل هدفه أن يستثير غضب الناس وعاطفتهم، وأن يجد ما ينفس عن غضبه وحقده على الفاعلين، وهي في عالمها الذي صار أنأى مما يعتقد!

حملت النعوش على الأكتاف، وسير بها إلى المقبرة كما لو أنها تشق بموكبها مجرى لنهر من الظلام، يتشكل من الرجال والنساء في ملابس حدادهم السوداء، وراح الشباب يرقصون بنعشي العروسين

اللذين يزفان بملابسهما البيضاء إلى بيتهما الأخير دون أن يعرجا على بيتهما الذي حلما به خلال فترة حبهما وخطبتهما، ما جعل ذويهما يصرون على أن يضعوهما في قبر واحد، رغم معارضة رجال الدين، واحتجاجهم على هذا التصرف الذي يتنافى والشرع، ما جعل الشاب الملثم الذي يسير محاطاً بحماية، يرفع صوته مطالباً بالدفن كما يريح أهل العروسين لا كما يريح رجال الدين الذين لا يعنيهم إلا التعقل في لحظات احتراق عقول المصابين وقلوبهم، وليرحل من يزعجه هذا الموقف غير مُعَزٍ، محتفظاً بنصيحته لمصابه، وحسم الأمر ليتم دفن جثتي العروسين معاً، وسط الزغاريد، وإطلاق الرصاص، وهتافات الاحتجاج المنددة بما جرى والمستنكرة لهذا الحجم من الذل الذي لم يعرف البلد مثيلاً له تحت سقف أي من الاحتلالات السابقة.

٦٦

فرقت المصيبة بين حليمة وأخويها، وتقاسم الأقارب هذين الطفلين، ليقوموا على تربيتهما، فعاشت حليمة في بيت عمها الكبير، وذهب أخوها الأكبر إلى بيت خالها، وأخوها الصغير إلى بيت خالتها، وبات الأطفال في غربة أقسى من أن يفهموا سببها، فصار الصغير يموء ليلاً على وسادته يريد أمه كقط سلب من وسط عائلته ليعيش وسط أسرة لا يعرف أحداً منها، وراحت زوجة الخال تشكو إلى زوجها كثرة تبول الأخ الكبير في فراشه ليلاً، دون أن تتفهم ظروفه النفسية،

وتنهره وتهدده مرات ومرات، بحجة أن هذا لمصلحته، ويسكت الخال عن تصرفاتها مضطراً، وظلت حليمة توغل في رحيلها في صمتها وصدمتها، رغم كل الزيارات إلى بيوت رجال الدين ومن كل الطوائف عسى أن يجدوا لها مخرجاً بِرُقْيَةٍ من رُقاهم المشهورة، أو بحجاب يحل عقدة لسانها، وبالرغم من نصح الأطباء وشرحهم لما أصابها بأنه حالة توحد، ولتترك إلى حين، إذ لا يمكن لرجال السحر والشعوذة أن يجدوا لها حلاً، إلا أن عاطفة عمها وحرقة قلبه عليها، جعلته يحملها في كل يوم إلى مكان يسمع عنه أو ينصح به، حتى لم يبق ثقب أو فتحة في جدار بيته، لم يحتو على تميمة، إضافة إلى تلك التي طمرها في حديقة المنزل، أو علقها على غصن شجرة من أشجارها، وثابر على إشرابها الماء وبيده من طاسة الرعبة المعدنية التي زخرف جوفها بآيات قرآنية، وبرموز ونقوش يقال إنها مباركة، إلا أنها لم تفلح في حل عقدة لسانها ولا إبعاد صورة التفاتة أبيها عليها عند السقوط، ولو للحظة.

حافظ الأقارب على اجتماع الأطفال في بيت من بيوتهم كل أحد من الصباح حتى المساء عدة أسابيع، ثم دخل فصل الشتاء، فانقطع فيه الأطفال عن رؤية بعضهم بعضاً، وتراجعت مشاعر الاهتمام بهم والحرقة عليهم، وتكفلت روتينية الحياة بجعل قصتهم تتلاشى عن السرد يوماً بعد يوم، لكثرة حدوث قصص ومشاكل مشابهة، حتى تصدر الأخبار في البلدة خبر إلقاء القبض على الملثم الذي أهمل حماية نفسه بعد تلك الحادثة، وبعد انسحاب القوات التي طوقت البلدة

لأسابيع بناء على طلب الكثير من الزعماء الذين تدخلوا لثني الناس عن رغبتهم في الانتقام، ونجحوا في ذلك، فكان مصيره السقوط في أيديهم، وساقوه إلى واحد من سجونهم، تخجل القبور من التشبه به، ليعيدوه بعد ستة أشهر تابوتاً، أثبت أن من في داخله هو الشخص نفسه الذي تحدثت عن شجاعته البلدات المجاورة فترة طويلة، ولكن دون أن يسمح لذويه بكشف النعش عن وجهه وجثته، ولسبب معروف لدى الجميع، فلقد تعرض قبل الموت إلى الكثير من الضرب والتعذيب ما أدى إلى موته المفجع وتشويهه البشع، فسارع الناس إلى دفنه بعد أن أحضرت جثته في ساعة متأخرة من الليل، والرائحة الكريهة تفوح من التابوت، وتنصل الناس من المسؤولية الأخلاقية تجاه شهامة هذا الفتى، لا بل لامه المداهنون على فعلته، وهيأوا أهله للصمت بعد أن فرضت أجهزة الأمن مبلغاً من المال على بعض الأثرياء الذين يترددون إلى مراكزها لحماية مصالحهم، فاشترى الأب بذلك المبلغ تذاكر سفر لكل أفراد عائلته، وغادر لبنان إلى البرازيل ولم يعد، وقد أوصى أبناءه بألا يفعلوا ذلك يوماً ولو بعد قرون!

٦٧

كل هذه القصص كان يرويها تحت تأثير الحدة التي انتابته بعد أن لامته نوميديا على كرهه لجراد الشرق المنتشر في بلاده، وبعد أن استفزته بعبارة هم عرب ومسلمون. ثم أنهى كلامه قائلاً:

- إن إثبات أصل الخسيس ونسبه لا يمنحه الرفعة.

ثم أطبق عينيه، وصمت عن الكلام ، فرأت الدمع يسيل على خديه، وعلمت أنه قد دخل حالة من الوجد الذي يحتاج إليه كل عاشق لبلده المعذب، فمدت يدها وأمسكت بيده وراحت تقبلها وتمررها على خدها، حول عنقها، تتنفس بحرارة ، وتقول:

- أتمنى لو كنت وأنت منحوتة من رخام لمايكل أنجلو، ونحن بجسدينا العاريين في وضعية عشق والتصاق أبدي، وقد وضعت فوق جبل مقدس يقصده حجاج عاشقون ليشاهدوا جمال عرينا، والبريق الظاهر في عيوننا الحجرية عشقاً أبدياً، فيتباركوا بأزلية حبنا وشهواتنا بملامسة أكفهم لتلك المنحوتة، التي لا تنال منها أية عوامل طبيعية، أو ظروف، وتنسج أساطير حولها، تعزز جيلاً بعد جيل قدسية الحب والرغبة المتمثلة فينا.

٦٨

كان ساهماً فترة من الوقت يتذكر العديد من الجولات أو النقاشات والجلسات التي جرت في فاس، عندما أفاق على رنين هاتفه، أشعة شاشته برقم دولي، رفعه إلى أذنه، وهتف ألو؟ فأتاه الصوت رقيقاً يرطن بالإنكليزية الركيكة، لفتاة كانت تحاول رصف كلمات قليلة لا أحد يعلم كم أمضت لتحفظها، من أجل إيصال رسالتها، وفهم من مضمون

الرسالة أنها كابدت مشقة الذهاب إلى كبائن الهاتف، وأنها اضطرت لقبول مضاجعة عامل الكابينة ليسمح لها بإجراء هذه المكالمة، بعد أن حصلت على رقمه من صفحته في الفيس بوك، وبعد أن قلبت ما أمكنها في صوره، ما جعلها تعلق الآمال كلها على هذا الاتصال.. وأخبرته أنها من الفيليبين، من بامبنغا، وأنها تبحث عن عمل ولا تملك المال الذي يمكنها من الحصول عليه عبر مكاتب التوظيف في بلادها لأنها باهظة، ورجته وبكت أثناء رجائها أن يساعدها على الحصول على عمل لها في الخليج، لأنها أم لصغيرين تخلى أبوهما عنهما قبل سنتين، وهما الآن بلا مأوى، ولا طعام، ولا أمل، ثم انتقلت إلى الكلام بالفلبينية، وتعال صوت رجل يرد عليها بلغتها، وانقطع الاتصال، ما جعله يفهم أن عامل الكابينة قد قطع اتصالها عمداً.

أعاد الاتصال بالرقم، مرة، فمرتين، ثم ثلاث مرات دون أن يجيبه أحد.. فأمسك الجوال بيده وأسند كوعه إلى كفه التي تقاطعت مع بطنه، وراح ينظر إلى شاشته صامتاً، يا إلهي أي اتصال هذا الذي يأتي من شخص لا يعرفه، من بلد لم يسبق أن زاره من قبل، من معاناة لا يملك عنها أبسط التفاصيل، ليرمي في عنقه رجاءً لا يمكن لأحد أن يجرؤ عليه لولا أن ظروفه بالقسوة التي جعلته على استعداد لرمي نفسه في أي تهلكة أملاً بالنجاة من التهلكة التي يقبع فيها؟! كل هذه التساؤلات نشبت في دماغه كالأشواك، وراحت تثيره ألماً وقلقاً، ليس له فيهما أي ذنب سوى ملمحه الإنساني الذي لمحته من خلال صوره،

فهل يخيب رجاءها، ويهمله، ثم يمحو رقم الهاتف؟ أم يحمّل نفسه مسؤولية إنسانية، ويسعى إلى رمي حبل الأمل والنجاة لها عبر الأثير، ويأخذ على عاتقه محاولة إنقاذ الصغيرين؟!

لقد أبعده هذا الاتصال عن عالمه الذي كان فيه، وفصل قلبه عن مشاعره التي كانت تشتعل قبل قليل، لا بل أدخله في ضبابية مجهولة الملامح، والهوية، والدين، والوطن، ونقله إلى عالم من العذابات، والتمزقات، والإحباطات، والهزائم التي لم تستطع البشرية أن توقف نزفها، ورحيلها عبر الزمن منذ بدايات الخلق، فتنتقل مكثفة، موغلة غوراً في أعماق النفس ووجدانها جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، حضارة بعد حضارة، وما زالت تتراكم، وتدفن تحت جبالها الأزلية ملايين من المعذبين، ملايين من الضنك والحاجة والعوز إلى القليل القليل، رغم جبال النعمة والرفاهية، والخيرات هنا وهناك، في عالم يحتج على أساطير مصاصي الدماء، إلا أنه يمارسها في أصغر تفاصيل جشعه اليومية!

جمع أغراضه التي كانت أمامه على الطاولة في المقهى، وحملها وغادر إلى سكنه، وهو بين تلاطمات صاخبة في عالمه الجواني حول اتصالها، يعبر شوارع تمزقه أكثر بما يصطف على جنباتها من سيارات فارهة، وأثاث منزلي قديم استغنى عنه أصحاب القصور بعد أن استبدلوه بأثاث جديد، رغم أنه ما زال في حالة ممتازة، إلا أنها نزعة الثراء التي حدثه عنها، ذات يوم صديق من أثرياء الرياض لما سمع اتصالاً يبلغه

بفاتورة صيانة سيارته التي كلفت ثمانية وأربعين ألف ريال، ما جعله يهمس بأن هذا المبلغ يكفي لشراء سيارة جديدة، فالتفت الثري إليه، وقال:

- أعلم أنك قد تشتري القميص أو الحذاء الذي أشتريه أنا، وأعلم أيضاً فرق السعر بين ما دفعته أنت، وما دفعته أنا، ولكنها نزعة الثراء تمنعني من دخول المحل الذي دخلته أنت لشرائه، إنها مسألة المكانة والمراتب يا صديقي.

ثم أحضر ألبوم صوره وبعض رؤساء العالم، وفتح على صورة التقطت له إلى جانب الرئيس جورج بوش الابن، وإلى جانبها صورة لشيك قيمته خمسة ملايين دولار، أودعها البنك قبل سنوات، ومازال يحتفظ بها اعتزازاً بنجاحه!

وأي نجاح هذا الذي تحتفل به البشرية، وفي مكان ما من الكوكب نفسه، أنثى تفتح خط هاتف على المجهول طلباً لنجاة طفليها؟! وتعلن استعدادها للسفر إلى كوكب آخر لإنقاذهما، أمن العدالة أن ينام أطفال على أسرة من نقود، فيما سواهم يقضي العمر يبحث عن لقمة تسد جوعه؟ ثم تناول هاتفه، وفتحه وأعاد طلب الرقم، مرات ومرات دون أن يجيب أحد، ما جعله يقلق، ويبحث في رأسه عن وسيلة للإمساك بأي طرف يمكنه من فهم هذا الحدث.

دخل بهو العمارة التي يسكن شقة من شققها، وتوجه إلى مكتب الاستقبال، وسأل الموظف المناوب بوبا، وقد كان فلبينياً عن الرقم إن كان لهاتف جوال، أم هو رقم لهاتف أرضي، فأخبره أنه لهاتف أرضي،

ثم سأله إن كان بإمكانه أن يقدم له خدمة، وراح يخبره عن الاتصال، وبوبا يصغي، حتى طلب منه رأيه في الأمر، فأخبره أن حياة الأمهات المهجورات في بلدهم قاسية، خصوصاً إن كان لديهن أطفال، وفرص العمل شبه معدومة، ولذلك يجد العديد من الأمهات أنفسهن أمام حل من اثنين، إما السفر وإما الدعارة مع السائحين الأجانب التي غالباً ما تزيد أفراد العائلة فرداً، أملاً بأن يعود والد الطفل لتحمل مسؤوليته ومسؤولية إخوته من أمه، وهو يصغي وإنسانيته تنهشه بحثاً عن حل، ورقة طبعه لا تجعله يفلت من مشكلة سمع بها دون أن يحمّل نفسه بعض المسؤولية تجاهها. فسأله عن فرق التوقيت بين البلدين، وطلب منه أن يتكلم في حال تم الرد، مخبراً المجيب بأنه يريد أن يتواصل مع المرأة التي اتصلت به مستنجدة قبل ساعات. وأخذ يطلب الرقم، مرات ومرات حتى تم الرد بعد أن يئس، فناول بوبا الهاتف، وأخذ بدوره يتحدث إلى المجيب بلغته، قائلاً ما بلغ به، لا بل زاد على الأمر أنه وعد المجيب بمبلغ من المال في حال قام بإيجاد المرأة التي اتصلت، ثم أبعد الهاتف ليسأله إن كانت قد ذكرت اسمها، فتذكر أنها قالت: جيم فرناندو. وأنها من بامبنغا! فأعطى بوبا اسمها للشخص الآخر، وطلب منه أن يرن على رقم الهاتف الذي يظهر عنده، متى حضرت وسيقوم هو بالاتصال به، ثم أقفل الهاتف وأعاده إليه.

٦٩

الصلاة هي ثقب، نحدثه في قوتنا، لنبلغ به ضعفنا الذي نحتاج

إليه لنشعر أننا أحياء؛ فالقوة تميت الأرواح، وبعض القلوب لا يشفيها موت من تكره، لا بل إن موت أصحابها يكاد لا يكفيها لذلك.. والقلق بشأن الضعفاء والمحتاجين صلاة، والتفكير فيهم، وتحمل آلام الشعور بظروفهم عبادة.

لم يستطع النوم تلك الليلة، وظل يتقلب في فراشه، يحاول مرة أن يرسم صورة لها، وأخرى للطفلين، ويعيد ربط عباراتها المتعثرة، لعله يصل إلى ملمح يريحه، فهو بحاجة لاتخاذ قرار إما بالرضوخ لرجائها، وإما بصم الآذان عنه واعتباره خدعة، ويرتاح !

فخطرت له فكرة، وقرر أن يجربها، لذا شغل جهاز اللاب توب، وفتح موقع فيس بوك، ثم كتب منشوراً بما حدث معه على صفحته، وأرسله عبر البريد الخاص إلى عدد من أصحابه، ومنهم نينا، وراح ينتظر، وما هي إلا ثوانٍ حتى راحت التعليقات تنهال على المنشور: «أرسل المبلغ لي أنا أقبله»، «كل يوم أستلم عشرات الاتصالات من هذا النوع»، «هل أنت ساذج أم أنت ساذج؟»، «أتؤمن بهذا العالم؟ إنه عالم افتراضي، محض وهم»، عشرات التعليقات التي لم يحوِ تعليق واحد منها جانباً من جوانب الرحمة، أو تحليل اتصالها بتجرد وموضوعية!

ثم لمع المؤشر في بريده الخاص يشير إلى استلام رسالة، فتحه ليرى أنها من نينا، التي فتحت تحقيقاً، لا يعرف كيف فتحته، وبالتأكيد لا يملك إمكانية إقفاله، إذ انهالت عليه بأسئلتها التي أشعلتها

نار الغيرة، وأعمت بصيرتها عن أنه مجرد اتصال بشخص لا يعرفه، وراحت تفند الكلمات، وتربط الاحتمالات بعضها ببعض، وتستنتج وتهجم، وتناور، وكل همها أن تعرف من أين حصلت على رقمه؟ وكيف اتصلت به وهي لا تعرفه، ولم هو بالذات؟ ثم تفرض نظريتها التي مفادها «أنه لو لم يكن على علاقة بها ما اتصلت وألقت بأحمال رجاءاتها فوق كاهله»، وهو يتخيل تارة ملامحها وانفعالاتها وجلوسها ثم انتصابها على ركبة ونصف، وحركات أيديها، وتعابير وجهها، وكيف تفتح عينيها حين تغضب، وكيف تنفث دخان سجائرها، وتتمتم ساخرة، ثم تشيح بوجهها بعيداً عنه، وهي تشتم بالفرنسية والإسبانية والإنكليزية، باللهجة المحلية بعبارات لا يفهمها، وطوراً يتخيل تلك الأم وابنيها، ويتساءل: ماذا لو كانت صادقة وفي دواخله عواءات تنهشه وصراخات تدافع عنه أمام ذاته، حتى عاد لينشر تصريحاً صمم فيه على المضي بالأمر حتى نهايته، معاهداً أن يغلق صفحته إلى الأبد فيما لو ظهر أنه مغفل، وإن ظهر أنه على حق فإن كل من علق على منشوره سلباً مدين له بالاعتذار العلني، ثم أقفل الجهاز والنور، ونام.

٧٠

في ساعة مبكرة من الصباح رن الهاتف رنة خاطفة، لا يكاد يُسمع صوتها، إلا أن تغلغل النوم في جسده؛ لم يمنعه من التحرك متثاقلاً ليعرف من المتصل، فلربما كان أحد من أقاربه، أو لربما هناك من هو

بحاجة لأمر ما، فمد يده يتحسس مفتشاً عن الهاتف عند حافة فراشه، ثم دسها تحت الوسادة ظناً منه أنه ربما لجأ إلى وضعه تحتها أثناء نومه، حتى عاد رنين الهاتف من جديد، وطال رنينه.

استفاق وكأن قرية نمل تسير داخل جمجمته، فتثقل جفنيه، وتشد رأسه إلى الوسادة، لكنه تحامل على نفسه، وتجرأ على تثاقله، ليجلس في فراشه، ثم راح يقلب الغطاء بيد، ويفرك عينيه بالأخرى بحثاً عن وضوح في الرؤية، حتى اهتدت أذنه إلى صوته عند أسفل قدميه، فمد يده وتناوله متسائلاً «ما الذي أوصله إلى هناك؟»، فتحه باحثاً عن رقم المتصل، ليكتشف أنه الرقم الذي ورده مساءً من الفيليبين.

أحس بالتوتر، والعجز عن تحديد رغبته، لكنه دون أي تفكير ضغط على زر الاتصال، ووضعه على أذنه، وراح ينتظر رنين الهاتف في الطرف الآخر، ويعد الرنات: واحدة، اثنتان، ثلاث، وقبل أن يبلغ الرنة الرابعة فتح الخط، وانسالت من فم المجيب عشرات الكلمات التي تحوي حروف الزاي والسين والصاد والثاء والذال، دون أن يفهم منه كلمة، ليردد ألو، ألو، ثم تغير الصوت إلى صوت المرأة، راحت تكرر كلماتها الإنكليزية المعدودات بسرعة وارتباك، وهو يطلب منها أن تهدأ وألّا تقلق بشأن الاتصال، موضحاً لها أنه المتصل وأن التكلفة عليه، وعادت لتوضح أن عليها الدفع عن كل دقيقة استقبال لهذه المكالمة، فاختصر عليها الأمر وطلب منها أن تهجئ له اسمها كاملاً.

أخذت تتلو الحروف، وتطلب منه إعادة قراءتها على مسمعها،

فتؤكد حرفاً، وتطلب تعديل آخر، حتى تمكن من تسجيل اسمها بالكامل، وضرب لها موعداً بعد ثلاثة أيام، حدد لها الساعة التي ينبغي لها الوجود فيها قرب الهاتف، لأنه سيعاود الاتصال، ثم أقفل الخط، وهو يشعر بفرح وسكينة، فقد تملكته نخوة لطالما أحب ذاته كلما أحس بها، وردد في نفسه أن المال وجد لننفقه، وأي جمال أفضل من إنفاقه في بحر، كما كان يردد أبوه «عمال مليح وكب بالبحر».

في الموعد المضروب، كان كل منهما على طرف من الهاتف، يخبرها أنه قد حول لها ملبغ مئة دولار أميركي، ويملي عليها رقم الحوالة، واسم المرسل، ورقم هاتفه، فتشكره مرة، وتعاود السؤال وتلح أخرى «أمتأكد أنك أرسلت المال؟» فيؤكد لها، وتشرع في البكاء من جديد، وتردد أنت ملاك أرسله الله لإنقاذ ولدي، وسأعيد إليك المال بعد أن تأخذني لأعمل عندك، فيضحك، وفي قلبه فرح وغصة، فكم من اتصال أجرته بثمن من جسدها، دون أن يؤتي ثماره، لذا كادت ألا تصدق أنه حول المال. ثم طلب منها أن ترن عليه بعد أن تستلم الحوالة لتطمئنه، وأكد لها أنها ستتلقى كل شهر مئة دولار إلى حين يجد لها عملاً.

٧١

بعد أقل من ساعة، رنت عليه من هاتف الكابينة، فاتصل بها، ليرى عبر صوتها مشاعر الارتباك والحيرة ، فتضحك مرة، وتبكي أخرى، ثم

تدخل في تفاصيل عن مشاريع تنوي أن تنجزها بهذه المئة دولار، فهي ستشتري للطفلين الملابس، وتجهيزات المدرسة، وستقيم عيد ميلاد لطفلها الصغير، وستجلب لهما وجبة طعام لذيذة، لكنها ليست غالية.. ثم سألها إن كانت ستشتري لنفسها شيئاً منها، فأخبرته أن طفليها أحق بما لديها الآن من مال، وإن بقي مبلغ ما ستدخره وستخفيه في مكان آمن، فلربما احتاجت إليه في ظروف طارئة.

في طريقه إلى صديقه الثري، كان يتساءل مع نفسه عن تناقضات هذا العالم، فقيمة المئة دولار هناك تساوي مساحة هائلة من الامتنان والشكر، والعرفان بالجميل، لا بل يمكنها أن تبدل أحوال عائلة من ثلاثة أفراد – ومن يدري ربما أكثر – من حال إلى حال، فيما هنا لا تساوي ثمن وجبة في مطعم كبرج الحمام، وتساءل: تراها كم تساوي بالنسبة إلى صديقه الثري؟؟ وكان هذا أول سؤال وجهه إليه وهو يصافحه عند الباب ، ورد الصديق الثري:

- حسب حاجتي إليها، فهي في صفقة شراء تعادل اتفاقية الصفقة بالكامل، فلن أفرط في دولار منها، أما إن كنت في حالة ترفيه فهي عندي أقل من البقشيش الذي يستحقه مضيفي في أي مكان، رغم أني لن أعطيه أكثر من نصف على عشرها، وأنت تعرف موقفي في هذا الأمر فمن يخدم الناس براتب يتقاضاه من أمثالي، لا يستحق أن أغدق عليه من مالي الخاص؟ ويختلف الحال إن كانت جزءاً من مصاريف الأسرة، حيث ينبغي أن أوظف دفعها، وأستثمره

بشكل جيد، حتى يعرفوا كم هو صعب الحصول على المال.

وراح يوضح له في نهاية كلامه الفرق بين صناع المال وبينه، حيث لا مجال للعواطف التي تثيرها الابتسامات، ونظرات العيون، وبعض الكلمات الكلائشية، وغيرها من السلوكيات التي يتقنها أولئك الذين لا يعدون تلاميذ في مدرسته، كواحد من أشهر صناع الثراء، ثم سأله عن سبب طرحه لهذا السؤال، فأخبره القصة كاملة، وهو يصغي بانتباه إلى أن انتهى، وعاد ليعلق على الأمر:

اسمح لي أن أصفك بواحدة مما يلي: فإما أنت غبي مغفل، تعاني فقراً عاطفياً، وإما أنك مغامر يراهن على الزمن لتلتقي تلك الفلبينية يوماً، وتقيم معها علاقة جنسية لتسترد دينك، وإما أنك مريض يتوهم أن تنبت له بعد مثل هذه الإغداقات أجنة تحوله إلى ملاك يرفرف فوق وجوه المساكين المبتسمة.

٧٢

ثم قهقه عالياً، وردد «يعجبني تشتتك، وتبعثرك، وسيرك في الحياة على غير هدى، لكن لو أنك أخبرتني، لكنت أخذت منك المئة دولار، ومنحتك فرصة مضاجعة واحدة من خادماتي» وعاد ليغرق في الضحك، ويزداد انفعالاً كلما نظر إليه، وهو صامتٌ، ينتظر توقفه عن الضحك، حتى تأسف، وعاد إلى طبيعته الهادئة، إلا أنه عاد

لينفجر بالضحك مجدداً مباركاً له مولوديه الجديدين في الفيلبين، ما جعل الأخير يشاركه في الضحك، قبل أن يطلب منه بشكل جدي أن يساعدها باستقدامها، للعمل عنده في البيت أو في واحد من مكاتبه، ما دفع الصديق الثري لسؤال :

- أأستقدمها للعمل عندي؟ أم لتضاجعها في بيتي؟

وطلب منه التوقف عن المزاح، والوثوق بحدسه، وأخذ يرجوه أن يؤمن لها عملاً ولو في واحد من فروع شركاته الدولية خارج البلاد، وبهذا يضمن أن لا شيء بينهما. فوافق الصديق الثري، واشترط عليه ألا يغار أو يغضب فيما لو أثارت رغبته تجاهها، وأراد أن يقيم معها علاقة، وطمأنه بألا علاقة له بما يفعل معها، فمن يدري كم من علاقة أقامت في بلادها تحت ضغط الحاجة، وكم من ديك صغير من ديوك الفيليبين نقد جسدها، لأجل بضعة بيزوسات، وأين الفرق فيما لو أقامت علاقة معه؟ فكل همه أن ينقذ الطفلين، ثم أخذ يسأل صديقه الثري عن الأوراق المطلوبة لإنهاء إجراءات الاستقدام، وطمأنه عبدالكريم، وهو يمرر طرف لسانه على شفته السفلى كسلوك ألفه عنه بعد كل حديث عن النساء، بألا يقلق، وكل ما عليه فعله أن يترك له رقم هاتفها، وسيتكفل بما تبقى، ويطلعه على سير الأمور خطوة بخطوة.

بعد عدة أشهر، وفي الساعة التاسعة صباحاً، وبعد أن كان يقف إلى جانب صديقه الثري في الصالة التنفيذية في مطار الرياض،

ينتظران خروج جيم فرناندو من صالة القادمين، أطلت فتاة في السابعة والعشرين من عمرها، حسب بياناتها في أوراق الاستقدام، شعرها القصير فوق كتفيها يتماوج برقة تشبه النسيم البارد المنبعث من أجهزة التكييف في المطار، تشرق من شفتيها ابتسامة، جعلتهما ينظران كل إلى الآخر بدهشة وانفعال، وامتلأ عبدالكريم بمشاعرالشكر والامتنان لصديقه على هذه الهدية، وهو يتساءل إن كان قد ورط الفتاة بصديقه، أم ورط صديقه بهذه الفتاة، ليتمنى لوهلة لو أنه استقدمها للعمل عنده، فهو أحق بها من عبدالكريم، وهو لا ينفك عن مراقبتها تتقدم خلف الزجاج متمايلة بوركها المكتنز، وصدرها المشرئب كطائري حمام قلصا عنقيهما بين أجنحتهما، عاجزاً عن طرد أمنية أن تكون له، حتى أحس بيد صديقه عبد الكريم تمسكت بكتفه، يقول له:

- يخرب بيتك شو حبيتك. ثم يعده بمكافأة عظيمة على هذه الهدية.

استقبلاها على طريقتها بالعناق، والقبلات، وهي تتنقل في عينيها بين وجهيهما محاولة أن تعرف أياً منهما ملاكها، ثم تعلقت في عنقه وراحت تحتضنه بحب وفرح وامتنان، وتعود لتبعد وجهها عنه، مشككة في حدسها، حتى أيقنت بعد أن تنبهت إلى أن أحدهما يرتدي ثوباً أبيض، فيما الآخر يرتدي بنطال جينز وقميصاً، ما جعلها تتذكر صورته في الفيس بوك بعد أن نسيتها لأنها لم تكن تدخله إلا

قليلاً بسبب ظروفها المالية. فمدت يدها وصافحت عبدالكريم تاركة مسافة بينهما، لتقترب وتلف ساعدها على ساعده وتسير إلى جانبه تجر حقيبتها اليدوية وليس على لسانها سوى عبارة شكراً للرب وشكراً لك.

٧٣

إلى طاولة مستديرة في مكتب من مكاتب عبدالكريم كان الثلاثة يجلسون، يشربون العصير، ينصت وصديقه الثري إليها، وهي تخرج من حقيبة يدها صور طفليها، فتفرشها أمامهما، راوية حكايتها مع أبيهما الذي أنجبت منه ابنتهما بعد علاقة غير شرعية، ثم عادت لتنجب منه طفلها آملة أن تفرض عليه تثبيت هذا الزواج، حتى استيقظت ذات صباح لتجده قد غادر تلك الغرفة التي بنياها من قصب الخيزران ملاصقة لجذع شجرة ضخمة في زاوية من قطعة أرض صغيرة لجدتها من أبيها، وقد أخذ معه ما يُحمل من أشياء يمكن بيعها، تاركاً لها طفلين، لاتملك لهما أي سبيل في الحياة، وبدأت تسرد لعبدالكريم كيف تعرفت إليه، فأخبرها أنه يعرف كامل القصة، ثم سألها أين تركت ولديها، فسالت الدموع من عينيها كحبات المطر، وأجابت أنها اتفقت مع صديقتها على أن ترعاهما في بيتها، مع أولادها الثلاثة، لتقوم هي بإرسال المال إليهم جميعاً، وراحت تعد عبدالكريم بأنها ستفعل كل ما يطلب منها، ولن تتردد في القيام بأي شيء يرضيه، مقابل احتفاظها

بعملها، وهو ينظر إلى صديقه الذي يقرأ في عينيه تلك النظرة التي تفيد أن الأمور أيسر مما توقع، وأن الطريق معبدة إلى معبد شهواته، فخالجه شعور حزين، أحس معه أن مهمته انتهت، وأن عليه الرحيل، ولتغفر له نفسه ما أوصل الفتاة إليه، متمنياً لها في سره أن تعرف كيف تأخذ نصيبها من الدنيا بأقل الخسائر، فهو لن يسامح نفسه فيما لو كان سبباً في إضافة شقاء إلى ما لديها من شقاءات.

٧٤

في مدينة لا تعرف الألوان فيها مناسبة لتستعرض بهاءها، يستيقظ الحالمون على أبيض فقد بياضه، وأسود فقد سواده، فيما وحده الأصفر يغرس جذوره في رمالها منذ ملايين السنين، ويكسب الفضاءَ صفرته، فمهما طليت جدران العمائر المتوالدة كل يوم بجديد الألوان وبهيّها، تراها تستعيد صفرتها مجرد أن يصفع الرمل جدرانها، لتغدو من بعيد كأنها جزء من تضاريس الطبيعة، ما يجعل هذه المدينة شاحبة الزهو، خريفية الملمح في الصباح الباكر، لا يميز المنفي إليها صيفها من شتائها أو ربيعها من خريفها إلَّا بقليل من اختلاف درجات الحرارة.

في هذه المدينة مستويان للحياة فقط، مستوى فاحش الثراء، إذا ما عشت فيه بغربتك التي تلبسها تحت جلدك منذ أن حملت حقيبتك التي كدست فيها وجوه وقلوب كل الذين منحوك حبهم عند بوابة المطار، في هذا المستوى تكون أشبه بكائن يحكم ذاته بالجلد كل

يوم عشرت المرات في علاقات باهتة بقاموسها المفرغ من كل مفاهيم الحياة، وسلوكياتها المطلية بمساحيق المكياج، حيث تفوح روائح البخور والعود نهاراً من البيوت والسيارات والملابس والأحذية، والأكف التي تصافحك، الأمر الذي يقفل فيك كل طاقة على الإبداع، فما أقسى التكلف على الأرواح الشفافة، وفي الليل تفوح من ذلك المستوى نفسه آلام وأصوات أولئك الذين يستهلكهم الخوف من وحشية تلك الروائح العطرة بعد أن تخلع زيفها لتطغى عليها روائح الأرواح والأجساد المشتعلة شهوة وغريزة، والتي لم يكسبها الثراء إلا ادعاءات النهار، وتبجحه، فيسلخه الليل عنها ، أمام أبواب الملاحق فوق الأسطح، وبين جدائل ناحلات صغيرات قصيرات جائعات، سُلخن عن أرواحهن وأرحامهن وبيوتهن وأوطانهن، ليلتصقن بأسياد لا يمكن لحائل أن يحميهن خلفه من مرادهم المحتوم.

ومستوى آخر يتسق لون بشرة سكانه مع لون اللوعة، وكذلك مع لون الحرمان الذي يعيشونه في أحيائهم الفقيرة، التي اختفت منها كل مظاهر الأناقة والترتيب، حيث تصطف البيوت بعضها إلى جانب بعض كما لو أنها قطعان ماشية ساعة الحر في وسط الظهيرة، وبأبواب تختلف كلياً بمعدنها وضيقها عن أبواب القصور والفلل هناك، فإذا ما جربت أن تخترق حياً من أحيائها يوماً ستلحظ أن روائح البخور أبعد ما تتخيل عن مثل هذه الأماكن، وكل شيء فيها مختلف، فالأبيض فيها رمادي وبني في كثير من الأحيان بسبب الفقر، والتقلب لمرات على الأرصفة

في انتظار قدوم الرزق، والأسود طيات، بسبب الأرواح التي تحمل في جوفها حزناً أسود، يكسوه جلد ببشرة سوداء، تكتسي بملابس سوداء تحت العباءة السوداء إلا قليلاً بما علق عليها من غبار، وأتربة.

إلا أن المشترك بين المستويين هو مؤخرات النساء اللاتي تشبه مستديرة الأسهم فوق جدار، فما أن تلمح الأعين سواداً يمر حتى تنصب النظرات على المؤخرات التي تلتف تحته كالسهام تسقط بعضها فوق بعض في نقطة ضيقة من المستديرة. وحده كان يسير متأملاً عيوناً أحاط بها السواد من كل الجهات، تعكس في نظراتها نتوءات الأيام وقسوتها، فلا الدخيلة ولا الأصيلة نجت من ذكورية الدين والتاريخ والمجتمع، ليلمح الناظر تحت كثير من العباءات مؤخرات عاريات إلا من اللون الأسود، وأثداء تشرئب تحته كقبب المآذن التي تزدحم فيها سماء المدينة، ما يعكس رغبة سحيقة في تمزيق هذا السواد الذي تعدت رمزيته ستر العورة، ليشكل حجاباً، يقمع خلفه كل إنسانية وإنسان.

٧٥

هكذا كان يصف تلك المدينة في جلسة جمعته بنوميديا أو نينا وصديقين آخرين، فوق تلة من تلال فاس القديمة في مطعم القصبة، عند الزاوية المحاطة بسور معدني أزرق جميل الرسوم، وهو يسرح نظره في التلال المحيطة حيث ترفرف الأعلام الحمراء فوق ساريات شاهقة وسط سور قصور الملك، والدوائر الحكومية، ومن حوله بضعة

سائحين أوروبيين، قصدوه برفقة فتيات مغربيات، أو إفريقيات، وقفت إحداهن تنشد النشيد الوطني الفرنسي لسائح مع صديقته ، فصفق لها الجميع، ثم تنبهت للإسباني الذي يجلس وحيداً ينتظر وصول صديقته، فتقدمت من طاولته، وأنشدت النشيد الإسباني، وكذلك صفق لها الجميع، فنهض الرجل وتقدم منها، وناولها خمسين درهماً، فطبعت على خده قبلة، وهي تسأله:

- إذا كان نشيد بلادك بخمسين درهماً، فهذه بكم؟

وتناول محفظته من جيبه، ليسحب منها خمسين أخرى، لكنها تتناول منها ورقة المئة درهم، وهي تقول بالطبع قبلتي أغلى من نشيد بلادك مع التقدير، فضحك الجميع وتعالى التصفيق، وتنبهت له فاقتربت منه، وسألته عن هويته، فضحكت نينا، وقالت لها:

- أن تنشدي النشيد الوطني لبلاده، لا بأس، لكن أن تقبليه، فسأصنع من قلبك طبق طاجن باللحم، وسأرمي ما تبقى منك من على هذا السور.

وتصر الإفريقية غير مبالية على معرفة هويته، فتخبرها أنه من لبنان، ولحسن حظ نوميديا أنها لم تكن تحفظ النشيد الوطني لبلاده، ما جعله يقف لينشد نشيد بلاده، ويأخذ من يد الإفريقية المئة درهم، ويعطيها لنوميديا، وسط احتفالية من الضحك والتعليقات، فتبتعد الأخرى غير مهتمة بالدراهم، لكن نينا نادتها بالفرنسية، ورمت لها الورقة النقدية، طالبة من الغارسون، الذي بدأ بتنزيل أطباق الطاجن، أن يبعدها عن المكان.

ودار نقاش حول الفرق بين رد فعل الأوروبي، والأميركي حيال تصرف تلك الفتاة الإفريقية، فمقابل فرح الأوروبيين بسماعها تحفظ وتنشد أناشيد بلدانهم، كان الأميركي سيقول بتعالٍ:

- إنه نشيد أميركا الوطني، ومن البديهي أن تحفظه كل شعوب الأرض!

ثم علق هو :

- تعتقد لطويل من الوقت أن المبدع الذي بداخلك قد مات، لأنك نومته، وأهملته، وأبعدته عن صخب الحياة إلى زواياها المعتمة الباردة، إلا أن وقوف مثل هذه الفتاة أمام الناس، تبتكر بدهاء وحرفية أدواتها في العيش وتحصيل الرزق، يجعله ينهض فيك من جديد رافضاً الإقرار بالموت، حتى وإن كان قد نحف وهزل وضعف جراء تراكم الوقت فوق أنفاسه، ليخبرك كم يملك من الإرادة التي تمكنه من العمل على نفسه لاستعادة شبابه وحياته بأقصر مما تتوقع من الوقت.

٧٦

انضم إلى مجلسهم رجل إيطالي، يملك شركة تعليب للسردين وللحوم الأسماك، كانت قد اتصلت به وطلبت منه الحضور لتعرفه بصديقها الفينيقي.. جلس واضعاً يديه على حافة الطاولة الخشبية،

المكسو وجهها بقطع الفسيفساء الملونة، في إصبعه خاتم كارتيه كبير، كتبت عليه حروف لاتينية، وبيده سوار معدني برونزي اللون، يرتدي قميصاً مخططاً رفع كميه إلى ما دون الكوع، شعره الأبيض الأملس طويل يتدلى فوق عنقه وحاجبيه الكثيفين، علقت بضع شعرات منه فوق أنفه الدقيق، الذي يتوسط وجهه العاكس لوسامته أيام الشباب، فمدت يدها ورفعت شعره المتدلي عن وجهه ورتبته فوق رأسه بأصابعها، وهي تقول:

- كارلوس، صديقي العجوز كارلوس.

فرحب به مبتسماً، فيما قال كارلوس:

- إذن أنت الفينيقي الذي طار خلف قلبه قرابة السبع ساعات، وركب القطار قرابة السبع ساعات أيضاً، قاطعاً ما يزيد عن السبعة آلاف كيلومتر، لتلتقي بشلحة أمازيغية، يمكن لأقبح لبنانية أن تفوقها جمالاً.

فالتفتت إليه غاضبة، ثم ابتسمت وهي تقول:

- أتحمل مسؤولية أني علمتك العربية، ولكني سأتصل الليلة بمارسيل لأخبرها بما تفعله في فاس بعيداً عنها.

فضحك، واعتذر موضحاً أنه يفضل أن يبدأ علاقات التعارف مع أشخاص جدد بالمزاح، ليختصر الكثير من الجهد والتكلف. ثم راح يثني على نوميديا، ويحكي له كيف أصرت أن تعلمه العربية، التي بات يتقن منها ما يفوق الخمسين بالمئة، وصار بإمكانه القراءة، والكتابة لعدة

أسطر، ثم انتقل إلى الحديث عن زيارته إلى لبنان قبل سنوات ضمن وفد لرجال أعمال إيطاليين، وكم استمتع بمشاهدة البلدات المعلقة على ذؤابة قمم سلسلة جبل لبنان، وأحب بعض الأكلات اللبنانية الشعبية، وأغمض عينيه، وراح يحكي له عن متعة مذاق نبيذ كسارا، الذي تذوقه في شاتو كسارا، وكم أعجبه تصميم كرومها، ومستودعات تخزين المنتجات، ثم روى له موقفاً وقع له عند مدخل وادي العرايش، حيث قام طفل يتسول في الشارع باختطاف منقوشة الزعتر من كفه قبل أن يتناول منها أي شيء، ومثيراً بفعلته ضحك الناس في الشارع والمجموعة التي كانت برفقته، وأنه يتوقع له أن يصبح سياسياً كبيراً في لبنان، فهو يعرف كيف يسرق، ثم أخذ يسأله عن مسقط رأسه هناك، واقترح عليه أن يتبادل معه الهوية، لأنه يحب لبنان، ويتمنى لو كان لبنانياً بالرغم من المشاكل كافة التي تلم بهذا البلد الصغير الشيطان.

٧٧

بدأ الجميع تناول أطباق الطاجن التي قصدوها من فاس الجديدة، راكبين التاكسي (الطاكسي) كما يلفظها ويكتبها المغاربة، حتى مدخل فاس القديمة في أسفل السفح، ليدخلوا بعدها سوقاً مغطاة بقوس من الطين، والإسمنت والحديد، على جنباتها دكاكين ومحال لحرف شعبية متنوعة، فذا يجلس عند حافة نوله يتم نسج سجادة بلدية، وذاك يجلس خلف سندانه الذي راح يطرق فوقه أواني النحاس التي يرسم

فوقها بشاكوشه إبداعاته وحزنه وهمومه، وبعده دكان جلست فيه امرأة تخبز على ما يشبه قبة برج بيت حمام، فأعجبه المشهد ورائحة الخبز، وسألها، إن كان بإمكانه أن يلتقط لها صورة، فوافقت شرط أن يدفع لها عشرين درهماً، التقط الصورة، وأخذ رغيف خبز، راحت الأيدي تنتش حافاته التي تدلت خارج كفه، فيما هو يقضم ما وضع في فمه متأملاً محلاً لتنجيد المقاعد الخشبية، ثم عرجوا على غرفة صغيرة بلا نوافذ بان من بابها عدد من الأطفال يجلسون على مقاعد دراسية، قديمة، تكسر معظمها، فوق بابها علقت لوحة كتب عليها اسم جمعية تهتم بدعم تعليم أطفال الأسر المعوزة، وقف خلف بابها من جهة الداخل، يصغي إلى صوت المعلمة المحجبة، يتأمل أطفالاً بثياب ممزقة، بعضهم بلا أحذية، لم تستطع ملامح البؤس والفقر أن تنتزع مسحة الجمال والبراءة من وجوههم، يرددون ما تقوله المعلمة بشكل جماعي، في أيدي بعضهم ألواح خشبية، اسودت أصابعها من الإمساك بقطع الفحم التي يكتبون بها عليها، ثم راح يتأمل جدران الغرفة التي بدت كما لو أنها لوحات غرافيتي، لكثرة ما خطت فوقها أيدي العابرين من عبارات، وكلمات، بعضها يقرأ، وبعضها الآخر تستحيل قراءته، لأنها خزنت بين حروفها عجزاً وارتباكاً يصوغان معاناة كل الذين مروا في هذه الغرفة، ولا شك أنهم أكثر من أن يحصوا.

عدّ الأطفال، وخرج وقد تملّكه الحزن، وفي عينيه تترقرق الدموع، ليطلب من نوميديا أن تقوده إلى أقرب محل تموينات، وضحكت، وسألته ممازحة :

- لم لا تقوم بإجراءات تبنيهم؟ وغارت عيناها خلف جفنيها جراء الضحك.

ثم خطت أمامه، وتبعها، طالباً من البقية انتظاره، حتى عاد يحمل أكياساً فيها علب عصائر، بسكويت وحلوى، وأقلام رصاص ودفاتر، منفقاً قرابة الخمسمئة درهم لشرائها، استأذن المعلمة، وتقدم ليقف إلى جانبها واضعاً الأكياس فوق الأرض، ثم سألها عن أفضل طريقة لتوزيع هداياه، فتركت له حرية التصرف، وتنحت جانباً، فقد كانت خجولة رغم ما لعينيها من سواد ونظرة هزته حين وقعت في عينيه، وراح يوزع الهدايا، والأطفال يتناولونها محرجين شاكرين، بعضهم يدخل إصبعه في فمه تعبيراً عن فرحه وحاجته إلى الحنان، وبعضهم يساوم آخر على تبادل الهدايا.

٧٨

بعد أن أتم التوزيع، صفقت المعلمة فعاد الجميع إلى أماكنهم، وبإشارة من يدها، أخذ الأطفال ينشدون أغنية حوت كلماتها عبارات الشكر والامتنان، وهو يقف دامعاً، مبتسماً على شاكلة الباكي، يصفق لهم بكفيه دون صوت، ثم جلسوا صامتين، لتقول المعلمة بلهجتها المغربية:

- شكراً لك آ سيدي، ممكن نعرفوا التلامذة بحضرتك؟

فناولها كيساً خصصه لها، وهو يكتم غُصَّة ويعض على شفته العليا اتقاء أن ينفجر في البكاء، ثم غادر دون أن يلبي لها مطلبها.

توجه كارلوس إليه بسؤال إن كان يثق بعالم الشبكة العنكبوتية، وهل يعتقد أن العلاقات التي تنشأ عليها يمكن أن تنجح؟

توقف عن الطعام وتناول منديلاً مسح به فمه، ثم جال بنظره على الأزقة التي تمر أسفل المطعم، وتذكر كيف صعدوا إلى صالته فوق السطح عبر درج ضيق تتجاوز الواحدة من درجاته الأربعين سنتمتراً، وترك لعينيه فرصة الغوص بين ازدحام المارة، وتدافع عبارات الباعة المتجولين، ونداءات الحمالين على ظهورهم أو فوق البغال يهتفون: «عنداك» يقصدون بها تحذير الناس من اعتراض طريقهم أو من الارتطام بما ينقلون. ونظر إلى كارلوس طويلاً، الأمر الذي جعلها تشعر وكأنه كره هذا الرجل وقال :

أتعتقد يا كارلوس أن جسدك الموجود معنا الآن يكفي لمنحي الثقة بماضيك وحاضرك ومستقبلك؟ أم تراك تظن أن ملامحك الجذابة تجعل جليسك يتغاضى عن معرفة قيمك وتفكيرك؟ أنا أنتظر ولادة جيل يعلمنا أننا بعقليتنا العاجزة عن تقبل ما يلبي عصره نشكل المحتل الوحيد بالنسبة إليه، ليغير بهذا مفهوم الاحتلال من لون الثياب الزيتي، وبندقية ودبابة تدخل من خارج الحدود، إلى ممارسات نتعمدها عبر تراكم السنوات لنروض بها، وندجن الأجيال التي شاءت الصدف أننا سبقناها، وبذلك نمنعها من تشكيل الحياة كما تراه مناسباً لها. بالطبع لقد سمعت بالنبي سليمان، أو سليمان الحكيم كما يسمونه في الأسطورة الدينية، ذلك الذي كان يتكلم لغات الأرض

كلها بما فيها لغة الحيوان والطير وغيره.. أنا أعتقد أن تلك الشخصية في عقول أبناء ذلك الزمن هي غوغل في عقولنا نحن اليوم، لقد تخيلوه قبل آلاف السنين، ليوجده إنسان هذا العصر، فما دمت أؤمن بالإنسان، إذَن أنا أؤمن بكل ما ينتجه من خير، ومن شر أحياناً، وبالتالي أنا أؤمن بالعلاقات التي تبدأ في العالم الافتراضي، وبإمكانية نقلها إلى عالم الواقع. لذا ركبت الطائرة والقطار والحافلة عابراً ما يربو على السبعة آلاف كيلومتر، لألتقي عقلاً وروحاً فتحا لي أبوابهما عبر تلك الشبكة، ليمكناني من فهم انسيابية عملهما في هذا الجسد النحيل الذي سموه نوميديا!

٧٩

رفع كارلوس كفيه مصفقاً، معبراً عن إعجابه، ثم هلل قائلاً لها:

- لقد منحتك الطبيعة الإلكترونية هبة مميزة، وإني أتمنى أن أحيا لأرى ما سينتج من لقاء حضارتيكما الفينيقية الأمازيغية عبر اتحادكما بطفل أظن أقل ما سيكونه أنه مدهش.

ثم توجه إلى نوميديا، وسألها إن كانت تتناول دواءها بانتظام، وإن كانت تراجع طبيب القلب كما اتفقا؟ الأمر الذي جعل وجهها يخلو منذ تلك اللحظة من الحياة والدماء، لتكسوه ملامح الغضب، والارتباك، وتشتعل عيناها بنظرات حادة رشقت بها كارلوس ثم حملت حقيبتها، ونفرت من مجلسها بأعنف ما يمكنها، ما جعل كل

ضيوف الصالة يلحظون ذلك، وخطت خطاها صوب الدرج، الذي راحت تنزله بوقع قدميها المتشنجتين،كما لو أنها تريد هدمه حتى لا يلحق بها أحد. مغادرة المطعم دون أن تخطره بوجهتها.

ظل في مكانه يلتفت إليه تارة، ويبحث عنها أخرى، عاجزاً عن اتخاذ القرار في البقاء أو اللحاق بها، ماراً بنظره على وجوه الناس فوق مقاعدهم يلتفتون إليهم، فقد كانت الصالة تحوي قرابة السبع طاولات فقط، ليرى تعابير متفاوتة مما يحدث، فتلك امرأة خمسينية ابتسمت له، وقد غمزته للحاق بها، وذاك شاب رفع حاجبيه تأسفاً، وفتاة تظهر ملامح وجهها تعاطفاً مع هذا الغريب الحائر، فيما راح الغارسون يطل بجذعه ورأسه من فوق السور بحثاً عن وجهتها التي سلكتها، وكارلوس يطمئنه إلى أنه يعرف طبعها، ولكن عليه أن يخبره بوضعها الحقيقي، لأنه واثق أنها أعجز من أن تفعل ذلك بنفسها.

ثم بدأ يروي له رحلة علاجها من مرض ضعف في عضلة القلب، وأنها بحاجة إلى عملية جراحية مكلفة، يتم من خلالها زرع بطارية وجهاز يدعمان تلك العضلة في عملها، وهو يصغي مرتباً في رأسه إشارات جعلته يستعيد بها روابط تعينه على فهم ما يقوله كارلوس، فقد كانت تستيقظ ليلاً، وهي تسعل، بعد أن يضيق تنفسها، وتأتي صديقتها لتدلك لها جسدها من أسفل كتفها، وفوق صدرها الأيسر، ويتذكر ميلها الشديد إلى النوم، وغيرها من الأشياء التي مكنته من تفهم دقة ما يهدف إليه كارلوس بكلامه.

٨٠

في شارع الأطلس في فاس الذي يمثل رئة المدينة التي يتنفس منها الفاسيون ميولهم الاجتماعية والثقافية وغيرها، حيث تصطف على جنباته محال متنوعة، والعديد من المقاهي، والحانات، ويفترش الأفارقة أرصفته لعرض ما حملوه معهم من منتوجات بلدانهم ذات الصناعة اليدوية، كان يسير إلى جانبها، لملاقاة أصدقاء في حانة بالقرب من الفندق الكبير الذي ينزل فيه، وقد تجاوزت الساعة التاسعة مساء، يناقشها في مسألة تناولها للشراب، وتأثيراته في قلبها الضعيف، وهي تصد عنها فكرة الخوف من الموت، واحتمال أن يكون المرض سبباً لقدومه، وتخبره عن رغبتها في الحياة، وما دامت قد التقته ووجدته، فلن تبالي إن أتى الموت غداً، لأنها عاشت عمرها تنتظر هذا اللقاء، وراحت تخبره عن شجاعة الأمازيغ عبر التاريخ منذ الملك المؤسس يوبا الأول حفيد يوغرطة، صاحب الفضل في تحرير راس بون في تونس من قبضة قوات يوليوس قيصر، وعرجت على العلاقة التاريخية بين الأمازيغ والطليان، منذ الحرب الأهلية الإيطالية التي دارت بين يوليوس قيصر وبومبيوس على السلطة، وكيف كانت إفريقيا تدفع خيرة الشبان الأمازيغ وقوداً لتلك الحرب التي لم يكن هدفها غير الاستيلاء على السلطة، وكيف تحمل يوبا الأول هزيمته أمام جيوش يوليوس قيصر، فأبت نفسه الفرار من المعركة، وفضل الانتحار بشجاعة وشهامة يعشقها كل أمازيغي حر، ثم روت له كيف أخذ القيصر ابنه

يوبا الثاني معه إلى إيطاليا، واهتم بتعليمه وتثقيفه، ثم نصبه ملكاً على موريتانيا، بعد أن زوجه ابنة كليوبترا وأنطونيو، وتعالى ضحكها عندما ذكرت له أن رعايا يوبا الثاني كانوا يقدسون ثقافته وعلمه، ويمقتون في الوقت نفسه ولاءه لقاتل أبيه، غير نافية حنكته في السياسة وإدارة مملكته، وأنه لا يليق بها أن تحمل اسم نوميديا الأم الأولى ليوغرطة إذا لم تتحلَّ بجرأتها وشجاعتها، فهي منجبة أعظم ملوك إفريقيا قبل الميلاد، وتضحك لتقول لا بأس إن كانت هي قد أنجبت ثلاثة ملوك، مقابل أن أحبك أنت يا مليكي!

دخلا الحانة، وبحثا عن الطاولة التي يجلس إليها الأصدقاء نوال وبلغيطي وعزيز، الذين سبقوهم إلى المكان، وقد كانوا كالعادة إلى طاولة تحتل ركناً بين واجهتين زجاجيتين، تطل إحداهما على شارع أطلس، فيما تطل الثانية على شارع يتفرع منه يميناً. انضما إليهم وطلبت ما تعشق حسب تعبيرها النبيذ الأحمر، ودارت الكؤوس مع أصوات الموسيقى المنبعثة من آلة أورغ يعزف عليها شاب نحيل، دون أن يغني، وإلى جانبه آخر يرافقه على آلة الكمان، راح العازفان يلبيان طلبات الحضور بعزف بعض الأغاني التي كانت ترافقهما في غناء كلماتها مجموعة من هذه الطاولة، ومجموعة من تلك، كما لو كانوا في سباق، حتى أتم كأسه الثالثة، فوقف دون أن ينذر أحداً، وخطا صوب الفرقة، وطلب من عازف الأورغ ميكروفوناً، وهمس في أذنه سائلاً عن إمكانية عزف بعض الأغاني، ثم استدار صوب الجمهور الذي راح يصفق له، ويردد «برافو، برافو» وهي تفتح عينيها على أشد اتساعهما تعبيراً عن

دهشتها بما يفعل، وجرى نهر النغمات التي طلبها في عزف أغنية «يانا يانا» للمطربة اللبنانية الشحرورة صباح، التي هلل لها الحضور بعد أن ظهر أنهم حفظوها بعد أن جددتها بعض الأصوات الشابة، وبدأ الغناء بصوت فرض على الجميع الهدوء، والتمايل بالرؤوس، والتلويح بالأيدي رقصاً وفرحاً، وبلغة العرب في صوته تأثيرها فصاحت إحداهن الله، ونهض أحدهم وخطا نحوه وقبله من جبينه، فيما كان هو يركز ببصره على نوميديا، ويردد المقطع الأحب إليه، فتشتعل في مجلسها حباً وفرحاً خلف وجهها الذي تحول كله إلى ابتسامات، أيقظت فيه عشقه للغناء، فعرف الحضور بنفسه وبهويته، وانتقلت الفرقة لتعزف أغنية ميادة الحناوي «أنا بعشقك» وراح يؤديها مطرباً بأدائه الآذان التي صفق أصحابها مرات مع كل إعادة، ورقص البعض في مكانه مرات، حتى أحس أنه ارتوى من الغناء، فشكر الفرقة، وناول عازفيها مبلغاً، وغادر المنصة، ليجلس إلى جانبها، فلاصقت كرسيها كرسيه، ومالت عليه بجذعها، وطوقته بذراعيها، وراحت تشمه من عنقه، وتهمس «أي ساحر أنت، أي ملاك أنت، أي جميل أنت؟». وتقدم بعض الحضور من طاولتهم، يصافحونه شاكرين، سائلين إن كان يلبي دعوتهم للسهرة في منزلهم، فيشكرهم، تاركاً الإجابة عن طلبهم لنينا، التي كانت تعتذر بلباقة، تدفعها لذلك غيرتها من النساء اللاتي تحلقن حوله، وليس انشغاله كما راحت تدعي، وغادر الجميع إلا سيدة عرفتها باسمها «بهيجة»، رفضت أي اعتذار، وأصرت على تلبية دعوتها إلى العشاء في بيتها في حي السعادة، وبقيت على موقفها رافضة الانصراف حتى

حصلت على أرقام هواتف البعض من المجموعة، وعلى موافقتها على اللقاء غداً في بيتها.

٨١

ركب الأصحاب مع غروب اليوم التالي سيارة أجرة، توجهت بهم إلى حي السعادة، وبدأت عيون الجميع تركيزها على تفاصيل في الشوارع للاستدلال على العنوان، متتبعة إشارات تركتها بهيجة في ذاكرة نينا، التي راحت تقول ابحثوا عن كذا، وعلى زاوية الزقاق المؤدي إلى بيتها يوجد كذا، وسائق التاكسي تائه بين أوامر الجميع، فذا يقول من هنا، ثم يأتي التعديل من آخر ليتراجع عن التوجه حيث أشار الأول، ثم يسمع تعديلاً أحدث بضرورة العودة إلى الشارع الرئيسي، ما جعله يرطن باللهجة المحلية سباً وشتماً للساعة التي قبل فيها هذه التوصيلة، فيضحك الأصحاب، ويعلو الهرج والثرثرة، ما دفع السائق للتوقف عن السير طالباً إلى الجميع الترجل من السيارة، وظنوا أنه يمازحهم في بداية الأمر، إلا أنه أظهر جديته في الموضوع دفعة واحدة، عندما ترجل من سيارته، وقد استل من جانب مقعده عصاً غليظه، واستدار وراح يفتح الأبواب مهدداً بتكسير العصا على رؤوسهم. وهم بين خشية من عصاه ورغبة في الانفجار ضحكاً جراء ما يحدث.

تجمع بعض فتية الحي، يضحكون مصفقين محمسين السائق، الذي ركب سيارته وانطلق مثيراً الغبار والحصى خلفه، دون أن

يتقاضى أجرته، وتقدم طفل ليقول «أبي عنده «طاكسي» إن أردتم ناديته ليوصلكم!»، فسألته نينا إن كان يعرف سيدة اسمها بهيجة، فتضاحك الصغار، حين رد هو سائلاً أية واحدة منهن؟؟ فتقدم من الطفل وبدأ يصفها له، الأمر الذي استفز نينا التي سألته:

- أتمكنت من حفظ ملامحها كافة بهذه السرعة؟؟ وما معنى هذا الشيء؟؟

٨٢

وكادت تغضب، لولا أن شغلها الفتى بقوله: أظنني عرفتها اتبعوني فقط، وسار بهم في زقاق فرعي، ثم دخل عمارة من دورين، صعد إلى الدور الثاني، وقرع جرساً، وهو يردد «إن شاء الله تكون هي»، مطالباً بمكافأة في حال معرفته للعنوان، أطلت بهيجة بكامل أناقتها، ما أبهج الفتى لتمكنه من تخمينها، فناوله عشرين درهماً، وعاد يقفز درجات السلم كما لو أنه قُبَّرَةٌ، فيما انشغل الأصحاب بمصافحة بهيجة والسؤال عن أحوالها.

وكان هو آخر الداخلين، فتقدمت منه بهيجة مصافحة، وانحنت عليه بصدرها وقبلته من خده، مرحبة، وهو يدعو الله أن تطيل نينا انشغالها عما يجري، كي لا تفسد السهرة بغيرتها، ثم قادته إلى مجلسه إلى جانب نوميديا، وجلست في مكانها المخصص تواد الجميع مرحبة بحضورهم.

انقضت السهرة بين مرح حوارات ثقافية، وغناء ورقص على أنغام موسيقى المسجل، وأشار أحدهم إلى أن الساعة تجاوزت الواحدة ليلاً وعليه أن يكون في مكتبه في الساعة الثامنة، لذا أعلن استئذانه مقرراً الانصراف فنهض الجميع، مستأذنين، إلا أنها أقسمت عليه ونينا أن يبيتا في شقتها، فهي وحدها، وغرف النوم تكفي لبقائهما، حدقت نينا إلى عينيه بنظرة تحمل عشرات التساؤلات عن غاية هذه السيدة، وإن كانت تستطيع أن تلحظ في عينيه ما يقودها إلى تخمين ما يجري، ثم التفتت ناظرة إلى أصحابها الذين تفاوتت ردودهم على الدعوة بين موافق ورافض، ما دفعها إلى القول: يمكنك أن تحتفظي به لهذه الليلة، وتأخذي نصيبك منه، أما أنا فسأعود مع أصحابي، فليس من طبعي التخلي عن رفاقي أبداً، وخطت صوب الباب، فلحقها الجميع، وتبعهم شاكراً السيدة على حسن ضيافتها، ونزل الجميع الدرج، تاركينها تقف عند الباب سائلة:

- أما من أحد منكم يبقى لمؤانستي الليلة؟ ثم أغلقت الباب، دون أن يأتيها جواب.

على مسافة عمارتين من المدخل الذي وقفوا فيه منتصف الليل حائرين في أمر إيجاد سيارة تقلهم في هذا الوقت من الليل، لمحت نينا جسداً صغيراً يركض تجاهها، حدقت جيداً لتجده ذاك الطفل نفسه، الذي دلهم على بيت بهيجة، أتاهم سائلاً إن كانوا يريدون «طاكسي» لأنه أخبر والده بأمرهم فطلب منه الأخير انتظارهم عند مدخل العمارة

لثقته بأنهم لن يجدوا سيارة في ساعة متأخرة من الليل، وهو بدوره لن يضيع رزقاً يمكنه أن يتحكم في قيمة المبلغ الذي سيطلبه بدلاً عن ذلك.

بعد أن أنزلتهم السيارة على مدخل الفندق الكبير في أطلس وسط فاس، وأكملت مسيرها لتقل بقية الأصحاب إلى منازلهم.. صعدا إلى الشقة رقم أربعة، ودخلا حائرين في أمر تلك السيدة، وهدفها من وراء تلك الدعوة.

جلست نينا في الكنبة المقابلة للتلفاز، شاحبة الوجه تبدو عليها آثار التعب، صامتة لا رغبة لها في الكلام، وركع هو أمام جلوسها، ليحرر قدميها من الحذاء، ثم جلس يحرر نفسه من ملابسه وحذائه، وهو يراقبها، ظاناً أنها ستنفجر غاضبة بسبب بعض التصرفات التي صدرت عن تلك السيدة، لكنه لاحظها تطبق جفنيها، وعلى وجهها ملامح كتم الألم، تقدم منها، وأمسك بوجهها، وسألها إن كانت بخير؟ فتحاملت على نفسها وطمأنته، لكنها طلبت منه أن يضع رجليها في وعاء من الماء الساخن،لأنها تشعر برغبة في التقيُّؤ، خصوصاً أنها تناولت بعض الأطعمة العالية الدهون، وأفرطت في الشرب. عاد من الحمام يحمل وعاء الماء الدافئ ليجدها وكأنها قد غفت، تقدم منها بهدوء هامساً باسمها، فلفت انتباهه تدلي شفتها السفلى، واللعاب الذي يسيل عند حافة فمها. وضع الوعاء بسرعة، وتقدم منها وهزها بقوة منادياً نينا.. نينا، دون أن تجيبه، فزفرت وشخرت، ما جعله يصرخ بأعلى صوته

نينا.. ثم فتح الباب وعاد ليحملها فوق يديه طالباً المساعدة، منادياً الموظف الليلي في الفندق: علي.. علي.. اطلب لي سيارة إسعاف فوراً، إلا أن علياً لم يكن موجوداً، لذا عبر منطقة الاستقبال في الفندق حافي القدمين، ثم غادر البوابة الزرقاء إلى الشارع المعتم، الخالي من أي حركة، وراح يتلفت يمنة ويسرة باحثاً عن أية سيارة، وهو يردد أما من أحد يمكنه المساعدة، وقرر دون أي تردد أن يجري باتجاه اليمين، وراح صوته يرتفع مع توتره وعجزه عن السير، طالباً المساعدة، فأخذت الأنوار تشتعل خلف الشرفات، وتحركت الستائر خلف بعض النوافذ بحثاً عن مصدر الصوت، ثم فتحت شرفة أطل منها رجل ستيني، سائلاً ما الذي يحدث، فانتابته بحة، وغصة وراح يرجوه المساعدة على نقلها إلى أقرب مشفى، ولم يتردد الرجل، ولم يطل وصوله سوى دقائق، لا تساوي شيئاً في حسابات الذين هم خارج دائرة القلق والخطر، فيما كانت تمر عليه ثوانيها كأنها سنوات من التشويش وفقد التوازن، والشعور بالضعف والحاجة، وهو يرجوها ألا تبتعد هامساً: نينا نينا ابقي معي هناك سيارة في طريقها إلينا، لا تضعفي، تحملي قليلاً فقط..

٨٣

وصلت السيارة، ونزل الرجل، وفتح الباب الخلفي، واستدار ليدخل السيارة من الجهة المقابلة، وليمسك برجليها ويساعده على تمديدها فوق المقعد الخلفي، وأغلقت الأبواب وانطلقت السيارة

تشق الظلمات والشوارع والأزقة، إلى أقرب مشفى، حيث توقفت وقد علا زعيق بوقها، فأتى اثنان راكضين يجران عربة نقل المرضى، وعادا بها إلى قسم الطوارئ، فيما توجه مع السائق إلى الإدارة لإتمام الأوراق الرسمية لدخولها المشفى. بعد إنهاء إجراءات إدخالها عاد ليسأل عنها، فأخبروه أنها في قسم العناية الفائقة.

اختفت ملامح وجه نينا كلياً، خلف الزجاج في غرفة العناية الفائقة، لتبدو في حوض الأكواريوم هذا، كسمكة تعوم في غيبوبة لا يعلم أحد ولا حتى هي ملامحها أو مكوناتها ولا مداها، الأنابيب تتدلى من حول رأسها، ووجهها المكمم بقناع الأوكسجين لا يبدو منه إلا بعض الجبين، حتى ثيابها التي كانت بها ما عادت عليها، ولا حركة داخل ذلك الحوض الصامت الجاف الباهت إلا مؤشرات العمل الكهربائية في أجهزة الدعم التي ارتبطت بها.

٨٤

لقد كانت قبل دقائق هنا، مشاعر وأصواتاً، وحركات وأنفاساً، وفرحاً وغضباً، لا بل ما زالت غيرتها تلف عقله وذاكرته وروحه ومخيلته بطاقة من التأثيرات المربكة، التي لطالما تجنب هباتها، أفيعقل أن تكون هي نفسها التي ترقد هناك خلف هذا الزجاج، ثم أين الطبيب الذي سيطمئنه عن وضعها، وما سيؤول حالها إليه؟

لا أحد سواه في مقعده قرب النافذة الزجاجية في الجدار

الرمادي، لقد رحل الرجل الذي أسعفها، دون أن يسلم عليه، والممر الطولي هادئ هدوءاً يجعل الكثير من المخاوف التي تجثم فوق صدره أشد ثقلاً، وكلما التفت إليها باحثاً عن أي جديد أو تغير في وضعيتها، تظهر له أنها ما زالت على تلك الوضعية التي تتمدد فيها، ولا شيء سوى مؤشرات الأجهزة وعقارب الساعة في الجدار المقابل عند نهاية الممر، تعلمه بمرور الوقت ساعة بعد أخرى، وتنبئه باقتراب طلوع الشمس، دون أن تؤتي كل صلواته إجاباتها حتى اللحظة، ينهض متمشياً بضع خطوات يميناً، وأخرى يساراً، ثم يعود ليتوقف عند زجاج النافذة ملصقاً وجهه به، هامساً: لا ترحلي نينا، لم نكمل أحاديثنا، ولا تعارفنا بعد! ثم يقول لها عودي بأبشع أوجه غيرتك، وافعلي كل ما ينفس عن غضبك لكن أرجوك لا ترحلي، ثم يتنفس بعمق محدثاً نفسه في أعماقه، بأنه سيتوقف عن الهذرفة، وأن ما يجري مجرد عارض، ربما ألفته هي، ويلتفت إليها ليعدها بعتاب قاس عندما تفيق، لأنها أخفت عنه الكثير من التفاصيل، ولأنها لم تخبره بما يجب عليه فعله في مثل هذه الحالات.

بدأت الحياة تستيقظ في المستشفى تدريجاً، وراح الممرضون يترددون إلى غرفة العناية الفائقة، يقومون بإجراءاتهم الروتينية، دون أن يجيب أحد منهم عن تساؤلاته العديدة، التي كان يطرحها، منذ وقوفه عند الباب كلما دخل أو خرج أحدهم من عندها، ليجيبوه أنه بعد قليل سيأتي الطبيب ليشرح له الوضع بالتفصيل.

أطل من آخر الممر وفد بدا أنه من الأطباء، يتقدمون بخطاهم صوب الغرفة التي يرابط عند نافذتها، يتوسطهم طبيب بيده لوحة الملاحظات التي يستخدمها لتدوين ملاحظاته عند زيارة المريض، فسأله من يكون بالنسبة إليها، ثم سأله إن كان يعرف أي عنوان لأحد من ذويها، وطلب منه البقاء إلى حين الكشف عليها.

طال بقاء الأطباء المكممين بأقنعتهم في ذلك الحوض، الذي جعلها أبعد مما يمكن عنه، بعد أن كانت تلتصق به طوال ما مضى من أيام، وهو يراقبهم من خلف زجاج النافذة، ويركز بناظريه على أدق الحركات التي تصدر عن شفاههم، وأيديهم محاولاً استباق خروجهم بفهم أي شيء عن حالها، حتى استدار الطبيب الذي حدثه، ونظر إليه من الداخل بعينيه المطلتين من فوق القناع الطبي، نظرة عصفت به كما لو أنها صاعقة كهربائية خضت جسده وروحه، ثم خطا مغادراً الغرفة، ليجتمع به عند الباب خارج الحوض، طالباً منه بحزم أن يجد بأي شكل من الأشكال وسيلة ما للاتصال بأهلها.

٨٥

فجأة أطل بعض أصحابه من نهاية الممر، يسيرون بقلق مرسلين الصوت قبل وصولهم سائلين عن حالها، تتقدمهم صديقتها المقربة، فتحتضنه وتشد على كتفيه، محاولة أن تطمئنه، فيما كانت يد صديق آخر تجول في شعره، تعبيراً عن دعمه، وهو في تشوشه الذي لا

يسمح له بالرد على عبارات الدعم التي راحوا يسمعونه إياها وتوحد أماني الجميع في شفائها، وفي عدم جدواها أمام ما لا بد من حدوثه، فاستقام، ورفع رأسه طالباً منهم أن يتصلوا بأهلها، ثم تساءل إن كان بإمكان أحد منهم أن يحضر له ما يمكنه أن ينتعله!

وطمأنته صديقتها أنها ستتصل بعائلتها، التي تحتاج إلى أكثر من ثلاث ساعات لتصل ، هذا إن غادرت فور تبلغها، وإن وجدت رحلة تقلها لحظة بلوغها محطة القطار، عدا إن كانت لا تملك المال الكافي لثمن تذاكر الركوب في القطار!

جلس عند النافذة الزجاجية لغرفة العناية الفائقة طوال يومين دون أن يذوق طعاماً أو شراباً، ولم يحضر أحد من عائلتها بعد، إلا أنهم كانوا يتصلون بالاستعلامات للاطمئنان إليها، دون أن يُقدِّم أحد منهم أيَّ توضيح عن أسباب عدم تمكن أي منهم من الحضور إلى المستشفى.

كانت الساعة تشير إلى الثانية وعشر دقائق بالضبط، عندما هرع الفريق الطبي والممرضون إلى الغرفة، بعد أن أنذرتهم الأجهزة الطبية، دخل الجميع الغرفة، وأغلقوا الباب من الداخل، ثم تقدمت ممرضة من الستارة الداخلية للنافذة الزجاجية، وقامت بإغلاقها، وهو يشد ويضغط على رباطة جأشه، وتوتره بأقسى ما يملكه من رجولة وحزم وجدية، حتى شعر كما لو أن بداخله بركاناً من الرغبة في الصراخ والبكاء والنحيب والغضب، والرغبة في تحطيم كل ما تقع عليه يده،

إلا أنه عض أسنانه بعضها على بعض، وأطبق شفتيه بقوة، فكأنه يكتم فوهة بركان ليمنعه من الانفجار.

انفتحت الستارة من جديد، ليرى الممرضة حزينة، تسيل من عينيها الدموع، ثم لمح ممرضة أخرى تحرر وجهها من كل ما كان عليه، فيما سحب الطبيب الغطاء ليخفي وجهها عنه إلى الأبد، وأغلقت ستارة النافذة من جديد، ليغادر الجميع صامتين، لا يملكون شيئاً ليقولوه، وهو يتأملهم صامتاً، تنهمر الدموع من عينيه كما لو أنها ميزاب يحرق مجراه، مردداً في صمته: أيُعقل أن ترحل بهذ السرعة!

٨٦

أتى الأصحاب يركضون، غير مصدقين سرعة هذا الرحيل، يبكون، يصرخون ويشتمون، وكل هذه الردود من أفعالهم لن تغير في ما جرى شيئاً، لقد رحلت نينا دون وداع، دون أن تجد وقتاً لتقول ما في نفسها، رحلت فجأة، كما ظهرت فجأة قبل سنوات في هذه المدينة.

في الوقت الذي كانت تغادر فيه جثة نينا المستشفى، كان هو يغادر فاس على متن القطار عائداً إلى مطار الدار البيضاء، ومنه إلى الرياض.

في مقطورته الخاصة التي اشترى تذاكر كل مقاعدها، ليختلي بنفسه، كان يتكور كطفل، ينحب ويبكي بصوت مكتوم، وقد ألقى رأسه فوق ذراعيه المتكاتفتين فوق ركبتيه، ينظر إلى صورها في كاميرته الصغيرة قائلاً:

- آه يا نينا كيف يتجول الموت بيننا وفينا دون أن نتنبّه له، فكأنك أنت نفسك تلك التي عرفتها في بابل، وكأنها أنت التي غادرت روحها العراق هرباً من الحرب إلى فاس، تنتظر مني أن أجدها، وأرحل إليها، لتعاود الموت من جديد، فكأنها لم تكتفي بما لاعني في موتها الأول، لترى لوعتي في موتها الثاني، أجل يا نينا أنت هي، وهي أنت.. فالحب حب وإن اختلفت القلوب والأجساد والأرواح والملامح...

لماذا لم تخبريني أنكما واحد، ثقي كنت خلعت الصليب، وأعدته إليك، أي مجهول يربط بينكما، وأي شيء يجعل منكما واحداً في داخلي يا نينا، لقد رحلت كلتاكما دون إلقاء التحية، قد تستغربين لِمَ أُصِرُّ على إلقاء التحية؟ نعم النار تأكلني لعدم حصولي على اللقاء الأخير، فكل اللقاءات تنتهي وتختفي إن لم يثبتها لقاء أخير يا نينا. في كل مرة أرحل دون قبلة وداع، وفي كل مرة، أعود لأمزق الصور والرسائل والذكريات، علّي أنجو بقلبي من لوعتي، وما إن تتحول الجراح إلى ندوب حتى تعود لتنفتح من جديد، وبأقسى مما كانت عليه، تمنيت لو أني أنام الآن ولا أفيق أبداً، تمنيت لو أني أصل إلى الرياض، لأفتح صفحتي في الموقع، وأجد رسالة، لا يهم ما هو مضمونها، المهم أن تكون منك أنت. أتذكرين كيف كنا نفلسف الحب في كلماتنا، وكيف كنا نعيش لهفاتها على الشاشة الصغيرة، تبتسمين لألتقط لك صورة،

وكيف كنت تجلسين أمام الكاميرا بوجهك الجانبي، لأرسمك فوق الورق الشفاف الذي ألصقه فوق الشاشة؟ آه يا نينا لو أني أخبرتك كيف كنت أشعر وأنا أقص رسمك على سجادة الكرتون، وما الذي انتابني عندما أتاني حدس يخبرني أنك سترحلين، لكني تجاهلته. أتذكرين كيف كنا نقرأ في كتاب واحد معاً، وكيف كنا نرقص كالمجانين في الشوارع، وكيف كنت تمتطين ظهري كالأطفال، والناس من حولنا يشمئزون من وقاحتنا! لو علموا أنك كنت تفعلين ذلك لإحساسك المسبق بأنك سترحلين قبل أن نتم بعض الحب، لغفروا لنا ما فعلنا في بحيرة الماء التي تحيط بالنافورة في شارع ابن الأثير، يوم شمرت عن ساقيك ونزلت فيها، وشددتني من يدي، وسقطنا معاً في الماء، وعدنا إلى البيت عاريين من الستر رغم وجود الملابس فوق جسدينا.

٨٧

- أتذكرين كيف احتفلنا في عيد ميلادك بعد أول لقاء لنا في المقهى، وكيف رحت أُلَوِّنُ وجهكِ بالشوكولا، وأنت تضحكين، أتذكرين كيف كنت أرسل الزهور في عيد الحب من كل عام، لتصلك مع بائع الورد الذي كان يقبلك بالنيابة عني، ولا أنال إلا الشوق؟ آه يا نينا صوت الآن في أذني وأنا مع سائق «الطاكسي» الذي يقلني فجراً إلى محطة الدوزيم في الرباط، وأنت تتصلين كل دقيقتين لتطمئني

إلي، وتوصين السائق الغريب عن كلينا بي، ويعدك أن يفعل لأنه عرف كم تحبينني.

لقد عاد بموتك يا نينا جرح صديقي قاتل أبيه، وجرح منى وحسين وأهله، وجرح صاحبة الصليب الذي لا أظنني سأجد فرصة لأخلعه من عنقي يوماً، وعادت جراح كل الذين قتلوا في معركة تحررنا من ذاك الجراد الشرقي.

كان أولى بنا يا نينا أن نتعلم نحن الرجال كيف نجرد بنادقنا لأجل من نحب فقط، وليس لأجل القتل ثم القتل فقط.. ماذا عليَّ أن أنسى يا نينا، وأي حضارة تنتظرني بعد بابل وأمازيغ لتحملني جرحاً جديداً منها، آه يا نينا كم توضأت بالأمل يوم عرفتك خشية أن يأتي هذا اليوم، لكنه الحب يا نينا ذلك الكون المشتعل في جوارحنا إلى الأبد، فهل يطفىء الموت ناره، أخبريني يا نينا، وهل سيكون بإمكانك التواصل معي مجدداً من عالمك هناك عبر الفيس بوك، أويعقل أن نكون نحن أهل الأرض أكثر تقدماً منكم أنتم أهل السماء؟

أيقظه قاطع التذاكر لاستبدال القطار في محطة المحمدية، وكانت الساعة الثالثة فجراً، فنزل يجر حقيبته خلفه، غير آبه لأسئلة الغرباء عن سبب الدموع التي تسيل من عينيه أثناء طريقه لصعود القطار الذي سيقله إلى مطار الدار البيضاء.. وضع حقيبته فوق الشبك، وعاد ليتكور في الزاوية فوق المقعد البرتقالي، يقلب الصور في كاميرته الصغيرة،

ليراها تضحك هنا، وترقص هناك، وفي هذه تقفز، وهي هنا على ظهر حصان، وتركب عربة الخيل رافعة قبعتها في هذه، وفي ذي تشمه من خده، وفي أخرى تعضه من أذنه، وتتوالى الصور، فيسأل نفسه إن كان يحلم، أو إن كان أصلاً لم يأتِ إلى فاس، أو إن كان في كوكب الأرض كله، وتتوالى التساؤلات بلا إجابات، وبلا إيضاحات أو إشارات، فيشعر بالتعب والنعاس، ويستسلم لنوم عمقه وظاهره وباطنه حزن في حزن...!!

٨٨

أيقظته سيدة في مطار كازابلانكا، للصعود إلى الطائرة بعد أن غفا على مقعد في صالة الانتظار، وصادف أن كان المقعد الذي إلى جانبه فارغاً فاستأذنته بالجلوس، وراحت تروي له خلال الرحلة قصصاً من فصول حياتها، فهي ذاهبة إلى القاهرة، وقادمة من بنين، وتوفي زوجها على يد عصابة في سوريا، وأخذت تقيِّمُ الوضعَ في المنطقة وتحلل التقارير، وتشرح المخططات، لتقول في نهاية المطاف إنها صحفية، تعمل لدى عدة صحف، منها ذس دي (This Day) النيجيرية، وإنها في طريقها إلى القاهرة لتغطية قمة إفريقية حول مياه النيل. وحاولت أن تستفزه ليتكلم ككل الصحفيين الباحثين عن قصة، أو خبر ما، باستثناء مصدره، لكنه امتنع عن الحديث معها، مكتفياً بالحديث إلى نفسه في عالمه الجواني، الذي قد غدا عالمه الأحب مع استعار نار الحرب

يوماً بعد يوم في المنطقة، ومن يدري فقد تشمل الدول كافة التي تعتبر نفسها بمنأى عما يجري.. حتى نزل من الطائرة في مطار الملك خالد في الرياض، التفت خلفه ليرى مسافة السبعة آلاف كيلومتر التي اجتازها ذهاباً وإياباً، ليعود بهذا الجرح الذي بحث عنه بنفسه في عالم النت الافتراضي، وفي عالم الجغرافيا الواقعي، ليظل حقيقة مشتعلة في عالم قلبه الصغير، الحب الذي لا يمكنه أن يضيئنا ما لم يشعل عالمنا الجواني بالشوق والحنين والحرمان.

وعاد إلى عمله، دون أن يعود إلى واقعه، غير آبهٍ لأسئلة الجميع من حوله عن سبب حزنه، وانكفائه عن الخروج مع الأصحاب، وعدم إجابته عن اتصالات الأصدقاء بالهاتف خصوصاً عبدالكريم الذي تزوج جيم رسمياً، وما عاد يقصد كافيه إليت، ولا سواه، ليظل طوال الوقت يجلس في مقعده البني.

بعد أيام دخل محلاً يقوم عليه فيلبيني يختص في مسائل الديكور والزينة وغيرها من أمور لا يمكن لسواه إنجازها، وعاد منه يحمل لوحة كبيرة مغطاة بأوراق الجرائد ومسنداً صنعه الفيلبيني خصوصاً ليحملها.

دخل بيته في حي الملز، ووقف وسط الصالون يبحث عن الزاوية الأنسب ليضع فيها اللوحة المغطاة بورق الجرائد، جهز المسند في الزاوية التي اختارها، قبالة المقعد البني ثم أخذ يزيل أوراق الجرائد عن اللوحة كما لو أنه يخلع عنها ملابسها كما فعل تلك الليلة، لتظهر سجادة البازل الكرتونية، التي جمعها لآخر مرة في محل الفيلبيني.

وضعها فوق المسند، ورتب وقوفها، ثم ابتعد عنها خطوات وراح يـتأملها، طارداً عن مخيلته مشاهد الموت التي غيبت عنه العديد من الأصدقاء والأحباب، لتكون آخرهم نوميديا التي ستبقى معه من خلال هذه اللوحة، ثم وضع كتاب اللغة الأمازيغية إلى جانبها، وثبت في أعلاه ورقة كتب عليها عبارة أتته من صديقة اسمها رولا، تعليقاً على منشور له في صفحته في الفيس بوك تقول فيه : «صراحة ما ح أعرف رد، بس أكيد لازم دايماً يكون جواتك شريك، ولو ما كان موجود جسدياً».

عمر سعيد

الرياض ٢٠١٥